دخول المذهب المالكي
إلى
شمال نيجيريا وانتشاره فيه

للأستاذ صالح أكنوى

□ إن الذين ساهموا في ادخال المذهب المالكي في شمال نيجيريا كثير جدا، ووسائل الذين عملوا على نشره فيه متعددة ومتباينة. لذلك سنقسمهم إلى أصناف وطوائف ليسهل الحديث عنهم مع التأكيد هنا على أن هذه الأصناف والطوائف ليست دائما منفصلة الواحدة منها عن الأخرى تمام الانفصال. وسنعتبر حديثنا عن كل طائفة من هذه الطوائف وعن وسائلها الخاصة في نشر المذهب المالكي في نيجيريا مبحثا من مباحث هذا الفرع الأول. ففي الفرع اثنا عشر مبحثا: المبحث الأول: دور التجار، الثاني: دور المرابطين، الثالث: دور مملكة غانة القديمة، الرابع: دور مملكة مالي، الخامس: دور مملكة سنغاي، السادس: دور مملكة برنو وكانم، السابع: دور الهجرة، الثامن: دور المعلمين، التاسع: دور الدعاة، العاشر: دور الوعاظ، الحادي عشر: دور المتصوفة، الثاني عشر: دور المجاهد الاسلامي الكبير: الشيخ عثمان بن فودي.

المبحث الأول

دور التجــار

الصلات التي تربط شمال أفريقيا بغربها متوغلة في القدم تعود إلى ما قبل ظهور الاسلام بمئات السنين. يقول الشيخ أدم: «لقد ثبت وجود صلة بين شمال أفريقيا وغربها قبل ظهور الاسلام بمئات السنين»[1]. ويقول باذل نافـدسن: «اتصل الغرب بالشمال الأفريقي وشماله الشرقي منذ أحقاب ممعنة في القدم»[2]. ويقول الدكتور محمد عبد الغني سعودي، «وإذا كانت أفريقيا جنوب الصحراء ظلت مظلمة حتى القرن التاسع عشر في نظر الأوربيين فلم يكن الحال هكذا بالنسبة لسكان أفريقية الشمالية أو غرب شبه الجزيرة فلم تكن هناك قطيعة كاملة بل كان هناك اختراق لهذا الصحراء في مواضع متعددة».[3] ويقول أوليفر وفيج: إن صلة البربر بالزنوج قديمة تعود إلى ماقبل خمسة أو ستة آلاف سنة قبل الميلاد أيام أن كانت الصحراء أرضا مزروعة تجري فيها المياه. ولما بدأ الجفاف التدريجي مال الزنوج إلى الارتحال إلى الجنوب تاركين معظم الصحراء للبربر الرحل وإن بقي بعض هؤلاء الزنوج في الواحات»[4]. وغير ذلك من أقوال المؤرخين التي تفيد أن العلاقات الشمالية الغربية ممعنة في القدم.

وكانت العلاقات التجارية من أهم هذه العلاقات التي كانت تربط شمال أفريقيا بغربها. ولايعرف بالضبط متى بدأت هذه العلاقات التجارية ولكن يعتقد

(1) الاسلام في نيجيريا ــ للشيخ آدم عبد الله الألورى ــ ص 17 (دار العربية ط. 2).

(2) أفريقيا تحت أضواء جديدة ــ لباذل دافدسن ــ ص 19 (ترجمة جمال م. أحمد ط. الثقافة).

(3) قضايا أفريقية ــ لمحمد عبد النبي سعودى ص 73 (ط. مطابع الأنباء ــ الكويت).

(4) موجز تاريخ أفريقيا ــ لأوليفر وفيج ص 62 (باللغة الأجنبية والترجمة لي).

بعض المؤرخين أنها تعود إلى أيام الفينيقيين والقرطاجنيين والرومان[5]. يقول الشيخ آدم أن هؤلاء الفينيقيين والرومان والقرطاجنيين هم «أول من فتحوا طرق التجارة والسياسة بين بلادهم وبين قبائل الزنوج»[6]. ويروى أن هذه العلاقات التجارية بين الشمال والغرب «فتحها الفينيقيون والقرطاجنيون والرومان بنحو ألف سنة قبل الاسلام و... يقال إن الفينيقيين والقرطاجنيين هم الذين حملوا صناعة الزجاج الملون والحديد والنحاس والأواني الفخارية وزراعة القطن والنسيج والحياكة إلى غرب أفريقيا. وإليهم يرجع آثار ما اكتشف أخيرا في مدينتي اليفي وبنين / النيجيريتين / من صناعات الفن التصويري».[7]

ومما يؤكد ذلك أن الفينيقيين كانوا تجارا مخاطرين ومحترفين. يقول الدكتور زاهر رياض: «كان الفينيقيون تجارا مخاطرين وكانوا محترفين إلى حد أنهم لم يدهشهم شيء عن داخل أفريقيا».[8] ويقول بعض المؤرخين: «أنهم كانوا أصحاب دكاكين العالم القديم»[9]. ونلاحظ أن تجارتهم الصامتة التي وصفها هيردتس هي عينها التي انتقلت إلى غرب أفريقيا.[10] وفي سنة 813 قبل الميلاد أسسوا في شمال أفريقيا مركزا لتجارتهم «سموه كارت هادس ومعناه: مدينة جديدة، وهي التي صارت تعرف فيما بعد باسم القرطاج»[11]. وهؤلاء الفينيقيون والقرطاجنيون الذين سيطروا على التجارة في شمال أفريقيا لقرون عديدة بعد ذلك «عرفوا عن مناجم الذهب في الأراضي التي عرفت فيما بعد باسم السودان الغربي»[12] وهي أراضي غرب أفريقيا في التسمية الحديثة. وكان من الطبيعي أن تعرف أمة التجارة السودان الغربي أو غرب أفريقيا الذي لم يختلف المؤرخون في أنه كان غنيا بالذهب غنى فاحشا. يقول اليعقوبي: «في هذه البلاد

---

(5) راجع الممالك الاسلامية في غرب أفريقيا ــ للدكتور زاهر رياض ص 31،43 (ط. الفنية).

(6) الاسلام في نيجيريا ــ للشيخ آدم ص 15 (ط. مطبعة دار العربية بيروت ط. 2 عام 1971).

(7) نفس المصدر ص 47-48.

(8) الممالك الاسلامية في غرب أفريقيا للدكتور زاهر رياض ص 31.

(9) العالم القديم ــ للأستاذ ف.ك. بووا ج 1 ص 87 (باللغة الأجنبية والترجمة لصاحب البحث).

(10) العالم القديم ــ للأستاذ بووا ــ ج 1 ص 88.

(11) نفس المصدر ج 1 ص 90.

(12) نفس المصدر ج 1 ص 91.

كلها الذهب».[13] ويقول ابن الفقيه: «الذهب ينبت في رمل هذه البلاد كما تنبت الجزر».[14] ويقول الدكتور زاهر رياض: إن الذهب كان من الكثرة في هذه البلاد بحيث كان من اللازم وسيلة للتحكم في كمية ما يعرض منه في السوق «وكانت وسيلة هذا التحكم صنع كل حاجات الملك وممتلكاته منه تاركين بقية الذهب فقط للتجارة».[15] فكان من ذلك أن بالغ بعض الملوك السودانيين في ذلك حتى اتخذوا معالف من ذهب يربطون عليها خيولهم. يقول القلقشندى: «وقد ذكر في الروض المعطار أن لصاحب غانة معلفين من ذهب يربط عليهما فرسان له أيام مقعده».[16] ويختلف المؤرخون في تقدير أوزان هذه المعالف وربما كان مرجع ذلك لتعدد الملوك السودانيين الذين كان لهم مثل هذه المعالف: «فهي في تقدير بعضهم 30 كيلوغراما وفي تقدير بعضهم الآخر تصل إلى القنطار».[17]

وتظهر أهمية ما تقدم من قدم العلاقات الشمالية الغربية في أنه يدل على عدم وجود أي عائق في وجه الاسلام والمذهب المالكي لكي يدخلا في غرب أفريقيا اثر دخولهما في شمالها. فإن هؤلاء الفينيقيين والقرطاجنيين والرومان الذين فتحوا طرق التجارة مع السودان الغربي بحثا عن طرق الحصول على ذهبهم خدموا الاسلام والمذهب المالكي في هذه البلاد خدمة جليلة وإن بدون قصد منهم، ذلكن أنهم «مهدوا الطريق للفتح الاسلامي منذ القرن الأول الهجري حتى تمكن العرب والبربر وسائر الملثمين من ربط غرب أفريقيا بشمالها وتمكنوا من تأسيس جالياتهم في عواصم غانة ومالي وتمبكتو وأكدز وكانو وبرنو وكانم.[18] ذلك أنه بعد دخول الاسلام في شمال أفريقيا استمرت التجارة تسلك نفس الطرق القديمة التي فتحها هؤلاء بل توسعت هذه الطرق حتى بلغت الاتصالات الشمالية الغربية ذروتها. يقول الدكتور محمد عبد الغني: «ان ذروة اتصال الشمال الأفريقي مع

(13) تاريخ اليعقوبي ج 1 ص 194 (ط. دار صادر — بيروت سنة 1960 م).
(14) معجم البلدان — لياقوت الحموى — ج 2 ص 362 (ط. السعادة بالقاهرة ط. 1 عام 1906).
(15) الممالك الاسلامية في غرب أفريقيا للدكتور زاهر رياض ص 109.
(16) صبح الأعشى للقلقشندى ج 5 ص 284 (ط. الأميرية بالقاهرة سنة 1915 م).
(17) نيجيريا وجيرانها — للأستاذ آ. فاجانا — ج 2 ص 75 (باللغة الأجنبية والترجمة لي).
(18) الاسلام في نيجيريا للشيخ آدم ص 48.

أفريقيا جنوب الصحراء كان بعد تعريب الشمال الأفريقي».[19] وكان مما ساعد على ذلك دخول الجمل «فقد أعطى الجمل للانسان حرية الحركة لم يعرفها من قبل ووضعت في تناول يده أقصى المراعي وفقدت طرق القوافل نصف مخاوفها وفتحت طرقا جديدة لسير التجارة والثقافة».[20] يقول الدكتور محمد عبد الغني: «يعتبر دخول الجمل حادثا فريدا في الصحراء الكبرى الأفريقية فبينما لم تنتظر الحركة في الصحراء وصول الجمل فإنه كان صاحب الفضل في جعل طرق القوافل شرايين منظمة للتجارة والحضارة بين جزأي أفريقيا شمال الصحراء وجنوبها»[21].

وكان ممن لعب دورا هاما في وصل الشمال بالغرب: عبد الرحمان بن حبيب بن أبي عبيدة ابن عقبة. فإنه عندما تولى على أفريقيا «غزا بلاد سوس وحفر سلسلة من الآبار في الصحراء واستطاع أن يصل الشمال بجنوب الصحراء صلة قوية تسهل الصعاب في سبيل نشر الاسلام ببلاد السودان»[22]. ولم تزل هذه المجهودات المختلفة تتضافر حتى صارت الطرق التجارية بين الشمال والجنوب منظمة تنظيما دقيقا فكانت هناك «مراكز شبيهة بالموانئ أو الاستراحات لتقليل حدة وصعوبات الصحراء والتجارة عبرها فضلا عن زيادة كفاءة تجميع السلع وتوزيعها».[23] ومن هذه الطرق ما تربط شمال نيجيريا بالمغرب ومنها ما تربطه بالجزائر وتونس ومنها ما تربطه بليبيا ومصر.[24].

ولقد يسر كل ذلك دخول الاسلام والمذهب المالكي في شمال نيجيريا تيسيرا عظيما وكان مما ساهم في ذلك مساهمة فعالة أن المبادلات التجارية التي كانت تجري بين الطرفين كانت من الأهمية بمكان بالنسبة للجميع فلم تكن قط تجارة ترفيهية أو كمالية بل كانت ضرورية وحتمية وخاصة بالنسبة لسكان غرب

(19) قضايا أفريقية ـــ للدكتور محمد عبد الغني سعودي ص 74.

(20) الممالك الاسلامية في غرب أفريقيا للدكتور زاهر رياض ص 69.

(21) قضايا أفريقية للدكتور محمد عبد الغني سعودي ص 74.

(22) الاسلام في نيجيريا للشيخ آدم ص 19، وراجع كذلك: المرابطون: تاريخهم السياسي لمحمد عبد الهادي شعيرة ص 25 (ط. دار الاتحاد العربي 1969).

(23) قضايا أفريقية للدكتور محمد عبد الغني ص 79.

(24) راجع : أصل الاسلام التاريخي ـــ للدكتور موسى عبدول ج 5 ص 106 (باللغة الأجنبية والترجمة لي). وراجع كذلك: الممالك الاسلامية للدكتور زاهر ص 37.

أفريقيا. ذلك أن هذه البلاد رغم ما تقدم من وفرة الذهب فيها كانت تعاني من نقص خطير في الملح[25] واشتد الأمر واستفحل حتى «بلغت أهمية الملح لدى السودانيين درجة كانت تقدر فيها قيمة الذهب بقوته الشرائيةِ للملح».[26] هذا في الوقت الذي كان يوجد فيه الملح بوفرة في الشمال وخاصة في قرية تغازى جنوب المغرب إلى درجة أن سكان هذه القرية كانوا يبنون به بيوتهم. فقد نزل بها ابن بطوطة في طريقه لزيارة السودان الغربي فرأى ذلك بنفسه فكتب يقول: ومن عجائب قرية تغازى «أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمل ولاشجر بها وإنما هي رمل فيه معدن الملح يحفر عليه في الأرض فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة».[27]

لكل ما تقدم كان من الضروري أن تقوم تجارة نشطة بين الطرفين. يقول الدكتور شوقي الجمل: إن لمملكة غانة «تجارة نشطة مع المغرب وكانت سجلماسة تعتبر من أهم المراكز في الطريق التجاري .. وتحدث الادريسي أيضا عن العاصمة كومبى وذكر أنها كانت أكبر أسواق السودان وأنها كانت لتجارة الذهب بالذات وأن السكان كانوا يبادلونه بالملح وغيره من البضائع التي يحتاجونها»[28]. وبلغت هذه التجارة من الأهمية عند السودانيين بحيث صار يستحيل عليهم أن يستغنوا عن شمال أفريقيا. ومما يدل على ذلك ما ذكره الدكتور زاهر في قوله أن السودانيين كانوا لايسمحون لأي كان أن يعرف مصدر ذهبهم[29] فحاول بعض تجار شمال أفريقيا «اكتشاف مصدر الذهب عن طريق الخيانة حين قبضوا على أحد الزنوج. ولكن الأخير فضل الموت على أن يقول كلمة واحدة فكان من نتيجة ذلك أن توقفت التجارة لثلاث سنوات ثم عادت لأنه لم يكن أمامهم من وسيلة أخرى للحصول على الملح».[30]

---

(25) راجع الممالك الاسلامية الدكتور زاهر ص 93، نيجيريا وجيرانها لفاجانا ج 2 ص 76.

(26) قضايا أفريقية للدكتور محمد عبد الغني ص 78.

(27) رحلة ابن بطوطة ص 658 (ط. دار التراث ــ بيروت سنة 1380 هـ).

(28) تاريخ كشف أفريقيا للدكتور شوقي الجمل ص 65 (ط. الفنية بالقاهرة سنة 1971 م).

(29) الممالك الاسلامية في غرب أفريقيا للدكتور زاهر رياض ص 94.

(30) نفس المصدر ص 110.

ولكن سبق أن ذكرنا أن أهمية هذه التجارة لم تقتصر على السودانيين. وتظهر أهميتها بالنسبة لسكان شمال أفريقيا من مثل ما أشار إليه العلامة ابن خلدون في قوله: «نقل السلع من البلد البعيد المسافة أو شدة الخطر في الطرقات يكون أكثر فائدة للتجار وأعظم أرباحا وأكفل بحوالة الأسواق لأن السلع المنقولة حينئذ تكون قليلة معوزة لبعد مكانها أو شدة الغرر في طريقها فيقل حاملوها ويعز وجودها وإذا قلت وعزت غلت أثمانها ... ولهذا تجد التجار الذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان أرفه الناس وأكثرهم أموالا لبعد طريقهم ومشقتهم».[31] هذا إلى جانب ما سبق أن ذكرناه من وفرة الذهب في السودان الغربي. فلقد كان هدف سكان شمال أفريقيا قبل الاسلام هو الحصول على أكبر قدر ممكن من ذهب السودان. وهو هدف لايستطيع أحد أن يستهين به. فمعظم المجهودات التي يبذلها الناس في كافة أرجاء العالم اليوم ليس لها من هدف أشرف من الحصول على المال أما بعد الاسلام فقد أضاف هؤلاء إلى ذلك هدفا آخر أشرف وأسمى: ألا وهو نشر هذا الدين الحنيف. ولا غرابة في ذلك أيضا. أليسوا أحفاد هؤلاء الأبطال من الصحابة الكرام الذين استهانوا حتى بأرواحهم في سبيل حمل هذا النور إلى سائر البلدان؟ ولذلك فقد اختلفت صورة التجارة في الحالتين.

فقبل الاسلام كان السودانيون يخافون من سكان شمال أفريقيا ويخافون على ذهبهم أن يكتشف مصدره، وكان سكان شمال أفريقيا لايقيمون للسودانيين أي وزن ولم يكونوا يتجارون معهم إلا من أجل الحصول على ذهبهم ولذلك كانت التجارة بين الطرفين تأخذ صورة التجارة الصامتة.[32] «فكان سكان شمال أفريقيا إذا وصلوا إلى شاطىء النهر ضربوا الطبل الكبير لاعلام السودانيين بوصولهم ثم يعرضون سلعهم على شكل أكوام على ضفة النهر ثم يتراجعون عن الأنظار وبعد ذلك يخرج التجار السودانيون فيضعون أكواما من الذهب إلى جانب كل كوم من البضاعة ثم ينسحبون بدورهم ليرجع تجار شمال أفريقيا فينظروا فيه. فإذا ما رضي هؤلاء بما وضع السودانيون من ذهب أخذوه وضربوا ليعلنوا انتهاء العملية وإلا تركوا البضائع والذهب جميعا حتى يرجع التجار

---

(31) تاريخ العلامة ابن خلدون المجلد 1 ص 706 (ط. دار الكتاب اللبناني ط. 3 عام 1967).

(32) راجع نيجيريا وجيرانها ــ لفاجانا ــ ج 2 ص 76.

السودانيون ويزيدوهم من الذهب ما يرضيهم. وبعد ذلك يأخذ السودانيون البضائع التي أدوا ثمنها»[33].

أما بعد الاسلام[34] فقد صار تجار شمال أفريقيا يأتون إلى غرب أفريقيا «جماعات وزرافات لتبادل هذه السلع وتلك البضائع مزودين بالأسلحة التي تحميهم من المعتدين وإذا حلوا ببلد أقاموا في حي لهم مستقل عن الحي الأصلي الوثني وكونوا لأنفسهم جالية اسلامية تقيم إقامة دائمة بالبلد ويحي بها شعائر الاسلام كعادتهم في بلادهم».[35] وسرعان ما يلفتون أنظار الأهالي بكثرة وضوئهم وانتظام أوقات صلاتهم.[36] وهم في معاملاتهم مع الأهالي عنوان الاسلام من الاخلاص والأمانة والكرم وغير ذلك فيقبل هؤلاء الأهالي الوثنيون «ليروا مصدر هذه الصفات التي تسمو بأصحابها إلى مستوى لم يعهده الناس من قبل مما جعل الاسلام ينتشر والعربية تسود حيث وصل تجار مسلمون».[37] وتنمو أحياؤهم بتزايد عدد المتحولين إلى الاسلام وتتطور حتى تصبح لامراكز تجارية فحسب ولكن مراكز اسلامية كذلك، كما حدث في مدينة تمبكتو وكانو وكاشنة وغيرها من مدن غرب أفريقيا بصفة عامة وشمال نيجيريا على وجه التخصيص[38]. وهكذا كان التجار خير الدعاة للاسلام بعملهم وسلوكهم حتى أضافوا إلى الشعوب الاسلامية شعوبا «ولأمتهم العربية مسلمين ينظرون إليها نظر الرائد ويعتبرونها مركز الحضارة والاشعاع».[39]

وكان مما يسر لهؤلاء التجار مهمتهم علاوة على ما سبق أن ذكرناه من ادراك السودانيين ضرورة الحفاظ على العلاقات الودية مع سكان شمال أفريقيا:

---

(33) نفس المصدر ج 2 ص 77 (باللغة الأجنبية والترجمة لي)، وراجع كذلك معجم البلدان لياقوت الحموي ج 2 ص 362 مادح التبر. الممالك الاسلامية في غرب أفريقيا للدكتور زاهر رياض ص 110، العالم القديم للأستاذ بووا ج 1 ص 88 (باللغة الأجنبية).

(34) ربما استمرت التجارة الصامتة في بعد الجهات إلى ما بعد الاسلام ولا يكون ذلك إلا استثناء من القاعدة العامة، كاستمرار الوثنية في بعض الجهات مع وجود الاسلام.

(35) الاسلام في نيجيريا — للشيخ آدم — ص 40.

(36) راجع الدعوة إلى الاسلام — لتوماس أرنولد — ص 391 (ط. لجنة التأليف ط 3 عام 1970).

(37) نيجيريا — لمحمود شاكر — ص 17 (ط. مؤسسة الرسالة بيروت ط. 2 عام 1391 هـ).

(38) أصل الاسلام التاريخي للدكتور موسى عبدول ج 5 ص 125 (باللغة الأجنبية والترجمة لي).

(39) نجيريا — لمحمود شاكر — ص 9.

«أن فكرة وجود الله لم تكن مجهولة عند الوثنيين الأفارقة».[40] وأكثر من ذلك إن الاعتقاد بوجود خالق الأكوان كان اعتقادا راسخا عندهم وإن اعتقدوا إلى جانب ذلك بوجود آلهة أخرى أدنى منه درجة[41] يقول الدكتور محمد سلام زناتي: «لانكاد نجد قبيلة من القبائل إلا ونجد لديها الاعتقاد في خالق أعظم. لكن هذه القبائل لاتتفق فيما بينها حول صفات هذا الخالق ولا حول طبيعة العلاقات بينه وبين البشر».[42] ويقول توماس أرنولد ان ذلك كان مما سهل على هؤلاء التجار أن يحولوا هؤلاء الوثنيين الأفارقة إلى عقيدة التوحيد الاسلامية[43]. وكان مما يسر لهم كذلك أن العقيدة الاسلامية واضحة لا غموض فيها ولا تعميات. وهذه الحقيقة لايشك فيها حتى أعداء الاسلام. يقول الدكتور غوستاف لبون: «الاسلام وادراكه سهل خال مما نراه في الأديان الأخرى ويأباه الذوق السليم غالبا من المتناقضات والغوامض. ولا شيء أكثر وضوحا وأقل غموضا يدخل الجنة من يقوم بها ويدخل النار من يعرض عنها وانك إذا ما اجتمعت بأي مسلم من أية طبقة رأيته يعرف ما يجب عليه أن يعتقد ويسرد لك أصول الاسلام في بضع كلمات بسهولة وهو بذلك على عكس النصراني الذي لايستطيع حديثا عن التثليث والاستحالة وما ماثلهما من الغوامض من غير أن يكون من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجدل».[44].

وهذا الوضوح والسهولة بالاضافة إلى تيسير مهمة التاجر في الدعوة الاسلامية كانا من أكبر عوامل توسيع رقعة هذه الدعوة إذ أمكن لكل تاجر ولكل مسلم أن يساهم فيها بخلاف ما لو كان في الاسلام مثل ما في غيره من التواءات خرافية دخيلة يتطلب الدفاع عنها التعمق في الفلسفة وأفانين الجدل، إذن لقل عدد المشتركين في الدعوة وربما كان التجار في مقدمة من ينفضون أيديهم من الدعوة بالمرة، ثم إن قيام التاجر بنشر الدعوة له مزايا لاتكاد تتوفر لغيره. وقد أوضع توماس أرنولد ذلك فقال: إن الداعي الأجنبي مثلا يكون في

(40) عثرات علم اللاهوت في أفريقيا — للدكتور بيانغ هـ. كاتو ص 69 (باللغة الأجنبية ...)
(41) أديان أفريقيا التقليدية — لايدوو ص 168-169.
(42) الاسلام والتقاليد القبلية ص 193.
(43) الدعوة إلى الاسلام — ليتوماس أرنولد — ص 393 (ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن).
(44) حضارة العرب — للدكتور غوستاف لبون — ص 125 (ترجمة عادل زعيتر ط. الحلبى).

العادة موضع الشك والريبة من الأهالي مما يعرقل دعوته وأن التاجر بخلاف ذلك من حيث أن «مهمته المعروفة التي لاضرر فيها تضمن له مناعة من أي احساس بمثل هذه الريبة، على حين نرى خبرته بالناس والأخلاق وحنكته التجارية في معاملة الناس تنيلانه قبولا حسنا وتزيلان ذلك الشعور بالضيق الذي قد ينشأ بطبيعة الحال من وجود الغريب. وهو لايقع في تلك المساوىء التي تعرقل مهمة الداعي المحترف الذي يكون معرضا لأن يتهم ببعض الدوافع الشريرة من جانب الشعب الذي نجد درجة خبرته وأفقه العقلي محدودين والذي يرى أن فكرة أي شخص يتحمل أخطار سفر طويل ويطرح جانبا كل المشاغل الدنيوية لغرض واحد هو أن يظفر بقوم يدخلهم في دعوته، أمر غامض لاسبيل إلى تفسيره».[45].

حتى إن الدكتور غوستاف لبون بسبب هذه المزايا التي يختص بها التاجر، يقترح على الأوربيين الذين يجوبون البلدان الأفريقية لأغراض مختلفة أن يحذوا حذو العرب فيعتمدوا التجارة كخير أسلوب لتحقيق مآربهم. يقول غوستاف لبون: «وعندي أنه يجدر بالسياح المعاصرين الذين يرغبون في درس شؤون أفريقية درسا مفصلا من غير أن يرهقوا ميزانية دولتهم، وفي الاغتناء عند الاقتضاء أن يحذوا حذو العرب في ارتيادهم أي في تنظيمهم للقوافل التجارية، فالنجاح على العموم أضمن في حمل أية أمة على قبول فريق من الناس قبولا حسنا عن طريق المقايضة التجارية من اجتياز هذا الفريق لأراضيها بغير هدف ظاهر ومبادرتها العدوان برصاص البنادق عند سوء الظن»[46].

من مجموع ما تقدم يمكن أن ندرك أهمية الدور الذي قام به التجار في إدخال الاسلام في غرب أفريقيا بصفة عامة وشمال نيجيريا على وجه التخصيص. وكان دور التجار المغاربة أبرز الأدوار إذ كانت صلتهم بغرب أفريقيا أوثق الصلات لما تقدم أن مركز الملح الذي كان يشكل محور هذه التجارة بالنسبة للسودانيين كان يوجد في تغازي في جنوب المغرب. ولذلك كان من الطبيعي أن يبلغ النشاط التجاري بين شمال أفريقيا وغربها ذروته على أيدي المغاربة. فقد

(45) الدعوة إلى الاسلام ــ لتوماس أرنولد ــ ص 461 (ط. لجنة التأليف والترجمة ط. 3 عام 1970).
(46) حضارة العرب ــ للدكتور غوستاف لبون ــ ص 556 (ط. الحلبى سنة 1969 م).

بلغ التنظيم التجاري على أيديهم من الدقة ما يوحي بأن العصر الحاضر لم يتقدم كثيرا في هذا الميدان. ومما يوضح ذلك ما ذكر أوليفر وفيج: إن بعض الرحالة العرب «رأى في القرن العاشر الميلادي حوالة مالية بقيمة عشرين ألف جنيه ذهبي كتبها تاجر سوداني إلى زميله في المغرب».[47] وهو أمر غني عن كل تعليق.

على أن نشاط التجار المغاربة لاتقل روعة في ميدان الدعوة الاسلامية. ذلك أنهم إلى جانب قيامهم ــ وعلى أتم الوجه ــ بجميع ما تقدم من الأنشطة التي تستهدف نشر الاسلام أبوا الا أن يؤسسوا للسودانيين مدارس تمكنهم من إدراك مزايا الدين الجديد الذي يدعونهم إليه. يقول المؤرخ النيجيري الكبير بؤوا «إن التجار من الجزيرة العربية وكذلك التجار المغاربة من شمال أفريقيا لم يكونوا مجرد تجار. فقد أسسوا مدارس عربية حيثما بشروا الناس بالقرآن. أنهم أرادوا بذلك أن يعلموا الناس قراءة القرآن بلغته الأصلية: اللغة العربية»[48]. وكان ذلك منهم عملا رائدا لايمكن المبالغة في تقدير أهميته. فقد فتح الباب على مصراعيه أمام الاسلام ليتغلغل إلى صفوف الملوك والوزراء وكان ذلك من أقوى عوامل انتشار الاسلام والمذهب المالكي كما سنوضح فيما بعد.[49]

من مجموع ما تقدم يتبين لنا أن التجار قاموا بدور بالغ الأهمية في إدخال الاسلام في غرب أفريقيا وشمال نيجيريا، وفي نشره كذلك في هذه المناطق. ولكن لايعرف بالضبط تاريخ دخول الاسلام في هذه المناطق إلا أن متانة العلاقات الشمالية الغربية تقتضى أن لا يتأخر ذلك كثيرا عن تاريخ دخوله في شمال أفريقيا والمغرب. وفعلا هناك روايات تفيد أن عقبة بن نافع الذي فتح المغرب الأقصى هو نفسه الذي أدخل الاسلام إلى غرب أفريقيا. يقول محمد عبد الهادي شعيرة: «توجد في بلاد النيجر رواية محلية سجلها بعض الرحالين الأوروبيين تقول أن غانة مدينة النيجر ــ كانت مقر جالية اسلامية منذ عام 60 هـ. وتدل هذه الروايات القديمة المتوارثة على حرص أهل البلاد حرصا كافيا على رفع أقدميتهم

(47) موجز تاريخ أفريقيا ــ لأوليفر وفيج ــ ص 66 (باللغة الأجنبية والترجمة لي)
(48) العالم القديم ــ للأستاذ بووا ــ ج 1 ص 170 (باللغة الأجنبية والترجمة لي).
(49) راجع المبحث الثامن عن دور المعلمين ابتداء من ص 243 من هذه المجلة.

وسابقتهم في الاسلام إلى أيام دخول العرب إلى المغرب».[50] وذكر الشيخ عبد الله بن فودي مثله فقال: «إن دخول الاسلام إلى الغرب ـــ يعني غرب أفريقيا ـــ كان بالقرن الأول الهجري على يد عقبة بن نافع الصحابي الجليل إذ أنه وصل إلى قبيلة من قبائل الروم فدعاهم إلى الاسلام فأسلم ملكهم من غير قتال وتزوج عقبة بنت ذلك الملك واسمها بـج منغ فولدت له أولادا نشأوا في بلاد أمهم».[51] وقال ان نشأة القبيلة الفلانية كانت من هؤلاء الأولاد الذين خلفهم عقبة حتى جاء في بعض أشعاره قوله:

وعقبة جد للفلانيين من عرب ومن تور كانت أمهم بـج منغ[52].

ونفس المعنى وارد في مجلة الوعي الاسلامي، ونصه: «قد كانت حملة عقبة بن نافع في المغرب الأقصى نقطة البدء في منطقة الغرب من أفريقيا. فبعد أن وصل إلى مدينة طنجة الحالية دار مع ساحل المحيط الأطلسي حتى وصل إلى الحدود الجنوبية للمغرب الأقصى. وقد ذكرت بعض الروايات عنه أنه توغل في غرب أفريقيا حتى وصل إلى بلاد غانة والتكرور. وينقل الرحالة بارت عن بعض الروايات المحلية قولها: إنه كان بغانة سنة 60 هـ جالية اسلامية وأن عقبة بنى بعض المساجد وتنسب إليه قبائل الفولانى في شمال نيجيريا والتي كان لها دور كبير في النهضة الاسلامية التي قامت على يد المجدد الامام عثمان دان فوديو في مطلع القرن التاسع عشر».[53].

وقد يحق المرء أن يشك في صحة الرواية القائلة بأن عقبة بن نافع أصل قبائل الفلاني بالنظر إلى ما تقدم من أقوال علماء الأجناس في أصلهم. أما الرواية القائلة بأن عقبة أدخل الاسلام إلى غرب أفريقيا فإننا إذا رجعنا إلى تاريخ الفتوحات الاسلامية بأفريقيا رأينا ذلك غير مستبعد. فمعلوم أن عمر بن الخطاب رضي الله في خلافته ولى عمرا بن العاص على الشام ومصر ثم ولى عمرو بدوره

---

(50) المرابطون: تاريخهم السياسي ـــ لمحمد عبد الهادي شعيرة ص 25 (ط. دار الاتحاد العربي).

(51) الاسلام في نيجيريا للشيخ آدم ص 17-18.

(52) نفس المصدر ص 18.

(53) مجلة الوعي الاسلامي، السنة 5 العدد 59 ذي القعدة 1389 هـ ـــ ديسمبر 1969 ص 63.

عقبة بن نافع على شمال أفريقيا وفتحها وأسس بها مدينة القيروان وجعلها مركزا لانطلاق دعوته وترك بها جالية عربية اسلامية ثم رجع إلى مصر ولم تتوسع فتوحاته هذه المرة إلى الأرجاء المجاورة ولما تولى عليها مرة ثانية في عهد يزيد بن معاوية واصل فتوحاته صوب الغرب حتى وصل إلى بلاد سوس واستمر حتى انتهى إلى البحر وأقحم فرسه فيه وأشهد الله أنه لم يمنعه من مواصلة فتوحاته صوب الغرب إلا ذلك البحر المحيط[54] فإنه إذا كان البحر هو الذي منعه من مواصلة فتوحاته صوب الغرب فليس ثمة ما يمنعه من مواصلتها صوب الجنوب في بلاد السودان وأن يسلم على يديه بعض السودانيين.

على أن صاحب القرطاس قد أكد أن اسلام بعض أقاليم السودان يرجع إلى القرن الأول الهجري. جاء في القرطاس ما نصه: «ومدينة تاتلاتن يسكنها قبيلة من صنهاجة يعرفون ببني وارث وهم قوم صالحون على السنة والجماعة وأسلموا على يد عقبة بن نافع الفهري أيام فتحه للمغرب وهم يجاهدون السودان الذين على غير الاسلام.»[55] فإذا صحت هذه الروايات التي قدمناها ثبت أن الاسلام قديم في غرب أفريقيا كقدمه في المغرب نفسه فيكون دور التجار فيما تقدم هو دور تقوية الاسلام الذي أدخله عقبة بن نافع في هذه المناطق. وإن لم تصح الروايات فلا ضير، فيكون التجار هم الذين أدخلوه ابتداء ثم عملوا على نشره.

ولكن تجار شمال أفريقيا من جهة ثانية لم يكونوا في أول الأمر ينتمون إلى مذهب فقهي معين. فعندما تحدثنا عن المذهب المالكي في المغرب أوضحنا كيف دخلت المذاهب السنية وغير السنية في هذه البلاد وكيف تصارعت حتى كانت الغلبة للمذهب المالكي.[56] فلما كانت هذه الأقطار الاسلامية العريقة هي مصدر الاسلام والمذهب المالكي بالنسبة لغرب أفريقيا فقد كان من الطبيعي أن يعرف غرب أفريقيا هذه المذاهب التي عرفها المغرب العربي. يقول محمد عبد الهادي شعيرة: «إن الاسلام وصل إلى الصحراء وإلى السودان في صورته الخارجية

(54) راجع الاستقصا للناصري — ج 1 ص 82 (7 ط. مطبعة دار الكتاب بالدار البيضاء 1954).

(55) القرطاس — لابن أبي زرع — ص 121 (ط. دار المنصور بالرباط سنة 1972 م).

(56) راجع ص 147،153 من ح 1 من رسالة الباحث «للمذهب المالكي في نيجيريا». (مرقونة)

الاباضية خاصة وفي صورته الزيدية الادريسية القريبة من أهل السنة وفي صورته الفاطمية وفي صورته السنية المالكية».[57]

وباستقرار المذهب المالكي في المغرب استقر هذا المذهب كذلك في غرب أفريقيا. فالظاهر أن كل ما كان يجرى في المغرب كان يجرى مثله تماما في السودان الغربي. ولكن هناك فرقا واحدا هو أن غرب أفريقيا وإن دخلت فيه مذاهب شتى إلا أن هذه المذاهب لم تتصارع فوق أرضه كما تصارعت في المغرب ويرجع السبب في ذلك إلى أن الأغلبية الساحقة من السودانيين الغربيين ظلوا وثنيين ولمدة طويلة بعد تعريب شمال أفريقيا والمغرب. ولم يكن بامكان هؤلاء التجار الذين تحدثنا عن أنشطتهم المختلفة في ميدان نشر الدعوة الاسلامية أن يفرضوا هذا الدين الجديد على أحد. وهكذا ظل معظم سكان غرب أفريقيا وثنيين ينظرون إلى الاسلام بدون كبير المبالات فكان الاسلام دين الأقلية القليلة معظمهم أجانب من تجار شمال أفريقيا وإخوانهم من المهاجرين. فلم يكن هناك ما يدعو للصراع المذهبي.

ولقد ظل الحال هكذا إلى أن جاء المرابطون وقضوا على أقوى الامبراطوريات السودانية فعززوا من جهة نفوذ هؤلاء التجار المسلمين الذين كانوا يعملون بوسائلهم الخاصة على نشر الاسلام، وأجبروا السودانيين من جهة ثانية على التفكير الجدى في أمر هذا الدين الجديد مما أدى إلى دخولهم في دين الله أفواجا حتى صارت الحركة المرابطية وكأنها مبتدأ اسلام السودانيين.

ولما كان هؤلاء المرابطون مالكيين غيورين على المذهب المالكي فقد تمذهب هؤلاء السودانيون كذلك بالمذهب المالكي. وكان من ضمن الذين أسلموا وتمذهبوا بالمذهب المالكي دفعة واحدة: سكان المناطق التي عرفت فيما بعد باسم نيجيريا.

---

(57) المرابطون ـــ لمحمد عبد الهادي ص 26.

المبحث الثاني

دور المرابطين

يرجع الفضل في قيام الدعوة المرابطية التي كان لها أكبر الأثر على الاطلاق في نشر المذهب المالكي في غرب أفريقيا بما فيه نيجيريا، إلى رجلين هما: يحيى بن ابراهيم الكدالي وعبد الله بن ياسين الجزولي وكلا الرجلين من قبيلة كدالة. وكدالة فخذ من صنهاجة التي هي أعظم قبائل البربر بالمغرب. وموطنهم الصحراء التي تلي بلاد السودان يقول ابن أبي زرع: «تنقسم صنهاجة على سبعين قبيلة منهم لمتونة وكدالة ومسوفة ولمطة ومسراته..»[58] ويقول الناصري: «صنهاجة إحدى قبائل البرانس من البربر وهي أعظم قبائلها بالمغرب لايكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم ... وتحت صنهاجة قبائل كثيرة تنتهي إلى السبعين منهم لمتونة وكدالة .. وكانت لهم بالمغرب دولتان عظيمتان دولة بني زيرى ... ودولة الملثمين بالمغرب الأقصى والأوسط والأندلس. وموطن هؤلاء الملثمين أرض الصحراء والرمال الجنوبية فيما بين بلاد البربر وبلاد السودان».[59]

وكان اسلامهم قديما حتى كان لهم دور عظيم في اسلام كثير من السودانيين قبل قيام الحركة المرابطية. فقد تقدم عن ابن أبي زرع قوله أن بني وارث من قبائل الصنهاجة أسلموا على يد عقبة بن نافع وجاهدوا السودانيين.[60] إلا أن هؤلاء الصنهاجة «افترق أمرهم من بعد ذلك وصار ملكهم طوائف ورياستهم شيعا واستمروا على ذلك مائة وعشرين سنة إلى أن

(58) القرطاس ص 120.

(59) الاستقصا ج 2 ص 3.

(60) راجع ص 172 ــ 173 من هذه المجلة.

قام فيهم الأمير أبو عبد الله محمد بن تيفاوت المعروف بتاسرت اللمتوني فاجتمعوا عليه وأحبوه وكان من أهل الفضل والدين والجهاد والحج فلبث فيهم ثلاث سنين ثم استشهد في بعض غزواته».[61] وبعد وفاته «قام بأمر صنهاجة من بعده: يحيى بن ابراهيم الكدالي .. فاستمر على رياسة صنهاجة وحربهم لأعدائهم إلى أن كانت سنة سبع وعشرين وأربعمائة فاستخلف على صنهاجة ابنه ابراهيم بن يحيى وارتحل الى المشرق برسم الحج».[62] وجدد عزمه على إصلاح حالة الاسلام في بلاده «واعتلجت في نفسه نزعة عارمة إلى تحقيق هذا الاصلاح»[63] فلما قضى مناسك الحج قفل راجعا إلى بلاده في جماعة من أصحابه فمروا بالقيروان حيث التقوا بشيخ المذهب المالكي بالقيروان أبي عمران الفاسي «وكان هدفهم هو أن يجروا على العادة في جعل الحج مقرونا بطلب العلم وأن يستفتوا فقيه القيروان فيما يحتاجون إليه من الفتاوى الدينية على أساس المذهب المالكي على حسب عادتهم في استفتائه وأن يؤدوا إليه بعض الهدايا».[64] هذا بالاضافة إلى ما تقدم من عزم يحيى بن ابراهيم على إصلاح حالة الاسلام في بلاده ولذلك بعد أن حضر دروس الفقيه القيرواني الفاسي طلب منه أن يزوده بفقيه يرحل معه إلى الصحراء ليساعده على القيام بهذه المهمة «فندب الشيخ أبو عمران تلامذته إلى ذلك فاستصعبوا دخول أرض الصحراء وأشفقوا منها».[65].

وعندئذ كتب أبو عمران الفاسي إلى الفقيه اللمطى الورع وجاج بن زللو الذي كان تتلمذ على الشيخ أبي عمران نفسه، وطلب إليه أن يلتمس بين طلبته من يثق بعمله ودينه فيبعثه مع يحيى بن ابراهيم إلى الصحراء ليقرأ أهلها القرآن ويفقههم في الدين. فسار يحيى بن ابراهيم بالكتاب حتى أتى الفقيه وجاج «وذلك في شهر رجب الفرد في سنة ثلاثين وأربعمائة فقرأ وجاج بن زللو الكتاب تلاميذه فقرأه عليهم وندبهم لما أمره به الشيخ أبو عمران الفاسي فانتدب لذلك رجل منهم جزولي النسب يعرف بعبد الله بن ياسين الجزولي وكان من حذاق

(61) الاستقصا ج 2 ص 5، وراجع كذلك: القرطاس ص 120-121.

(62) الاستقصا ج 2 ص 5، القرطاس ص 122.

(63) تاريخ الشعوب الاسلامية — لكارل بروكلمان — ج 2 ص 182 (ط. دار العلم بيروت ط. 2).

(64) المرابطون: تاريخهم السياسي — لمحمد عبد الهادي شعيرة — ص 33.

(65) الاستقصا ج 2 ص 6، القرطاس ص 123.

الطلبة الأذكياء النبهاء من أهل الدين والفضل والتقى والورع والفقه والأدب والسياسة، مشاركا في العلوم فخرج مع يحيى بن ابراهيم حتى وصل بلاد كدالة فالتقاه قبائل كدالة ولمتونة بالسرور وفرحوا به غاية وبالغوا في اكرامه وبره».[66]

فشرع عبد الله بن ياسين يعلم أهل الكدالة ما جهلوا من أمور دينهم وكرس نفسه لذلك متحمسا لهدايتهم إلى الصراط المستقيم فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر «وكبحهم عن كثير من مألوفاتهم الفاسدة وشدد في ذلك فاطرحوه واستصعبوا علمه وتركوا الأخذ عنه لما جسمهم من مشاق التكليف».[67] فلما رأى عبد الله بن ياسين إعراضهم عنه اعتزلهم في نفر من أصحابه «إلى جزيرة في نهر السنغال حيث بنوا بها رباطا وأسلموا أنفسهم فيه لعبادة متصلة»[68] «فتسامع الناس بهم وأنهم اعتزلوا بدينهم يطلبون الجنة والنجاة من النار فكثر الواردون عليهم والتوابون لديهم فأخذ عبد الله بن ياسين يقرئهم القرآن ويستميلهم إلى الخير ويرغبهم في ثواب الله ويحذرهم من عقابه حتى تمكن حبه من قلوبهم فلم تمر إلا مدة يسيرة حتى اجتمع له من التلامذة نحو ألف رجل»[69]. فسماهم المرابطين للزومهم رابطته[70] وقيل إن التسمية ترجع إلى موقعة استبسل فيها هؤلاء المرابطون فأطلق ابن ياسين عليهم هذا الاسم لصبرهم وحسن بلائهم ورباطة جأشهم.[71]

ولما تفقه هؤلاء التلاميذ وأشراف صنهاجة وترسخ فيهم الدين قام ابن ياسين فيهم خطيبا «فوعظهم وشوقهم إلى الجنة وخوفهم من النار ... ثم ندبهم إلى جهاد من خالفهم ... فقالوا له: أيها الشيخ المبارك مرنا بما شئت تجدنا سامعين لك مطيعين ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا فقال لهم أخرجوا على بركة الله وانذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله وابلغوهم حجته فإن تابوا فخلوا سبيلهم وإن أبوا

(66) القرطاس ص 123، الاستقصا ج 2 ص 7، تاريخ ابن خلدون ج 6 ص 374 (ط. 3 عام 1967).
(67) الاستقصا ج 2 ص 7 - 8.
(68) تاريخ ابن خلدون ج 6 ص 374 (ط. دار الكتاب اللبناني ــ بيروت ط. 3 سنة 1967 م).
(69) الاستقصا ج 2 ص 8، القرطاس ص 124، تاريخ العلامة ابن خلدون ج 6 ص 374.
(70) الاستقصا ج 2 ص 8.
(71) البيان المغرب لابن عذارى ج 4 ص 12 (تحقيق كولان ط. دار الثقافة ــ بيروت).

من ذلك وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانهم استعنا بالله عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. فسار كل رجل منهم إلى قومه وعشيرته فوعظهم وأنذرهم ودعاهم إلى الاقتلاع عما هم بسبيله فلم يرفعوا بذلك رأسا ... وحينئذ أمرهم بالجهاد»[72]. «فخرجوا وقاتلوا من استعصى عليهم من قبائل لمتونة وكدالة ومسوفة حتى أنابوا إلى الله واستقاموا على الطريقة».[73]

وهكذا قامت الدعوة المرابطية وتطورت لتصبح دولة دينية مهابة قائمة على **اخرجوا على بركة الله** الذي قاله عبد الله بن ياسين في خطبته السالفة الذكر فقد «كان هذا هو دستور الدولة المرابطية الذي سارت عليه منذ قيامها وقانونها الأساسي الذي لم تحد عنه قط. إنها قامت لاصلاح الفساد وتطهير المجتمع من عوامل الشر ونشر الفضائل الدينية وتطبيق الشريعة الاسلامية كما جاء بها صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم».[74] وكان من الطبيعي أن يبدأ المرابطون بتطبيق دستورهم على المغرب نفسه فخرجوا على بركة الله وطهروا المغرب من الفتن والفرقة ومن النحل الفاسدة فقضوا على الروافض وبرغواطة وغيرهما وردوا الجميع إلى حظيرة المذهب المالكي. وبعد ذلك تطلع المرابطون إلى تطبيق هذا الدستور على الأقطار المجاورة.

وكان للدولة المرابطية المالكية في بدايتها جناحان، جناح امتد نحو الشمال تحت امرة يوسف بن تاشفين، وجناح امتد نحو الجنوب تحت امرة ابن عمه أبي بكر بن عمر اللمتوني. أما الجناح الشمالي فقد جاءه خبر الدويلات الاسلامية المتناحرة في الأندلس وتحركات النصارى المريبة للاستفادة من ذلك، فاندفع هذا الجناح **على بركة الله** وعبر مضيق جبل طارق ولقن هؤلاء النصارى في الزلاقة[75] دروسا ظلت تصم آذانهم لقرون عديدة بعدها.

أما الجناح الجنوبي فقد اندفع الى السودان الغربي لتطهير أهلها من رجس الوثنية وجاهد في ذلك جهادا كبيرا فكان من ذلك أن أسلم هؤلاء السودانيون

(72) الاستقصا 9/2، القرطاس 125.

(73) تاريخ ابن خلدون 375/6.

(74) النبوغ المغربي 64/1.

(75) راجع المعجب ــ لعبد الواحد المراكشي ص 71-73 (ط. مطبعة الثقافة ــ سلا المغرب).

وتشبثوا بمذهب المرابطين. فكان هذا الجناح أسعد حظا رغم جلال الدور الذي قام به نظيره الشمالي، لأن هذا الجناح الجنوبي ترك من الآثار الحميدة ما لاتزيده الأيام الا رونقا وبهاء. فقد تحدث الناصرى عنْ جهاد المرابطين ضد السودانيين فقال : «كان سفر أبي بكر بن عمر الى الصحراء في ذي القعدة سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة ولما وصل اليها إليها أصلح شأنها ورتب أحوالها وجمع جيشا كثيفا وغزا به بلاد السودان فاستولى منها نحو تسعين مرحلة. وكان يوسف بن تاشفين قد استفحل أمره أيضا بالمغرب واستولى على أكثر بلاده. فلما سمع الأمير أبو بكر بن عمر بما آل إليه أمر يوسف بن تاشفين وما منحه الله من النصر أقبل من الصحراء ليختبر أحواله.. وعلم أنه لايتخلى له عن الأمر فقال له ياابن عم : أنزل أوصيك فنزلا معا وجلسا فقال أبو بكر : اني قد وليتك هذا الأمر واني مسؤول عنه فاتق الله تعالى في المسلمين.. ثم ودعه وانصرف الى الصحراء فأقام بها مواظبا على الجهاد في كفار السودان الى أن استشهد من سهم مسموم أصابه في شعبان سنة ثمانين وأربعمائة بعد أن استقام له أمر الصحراء كافة الى جبال الذهب من بلاد السودان».[76]

وقد شملت فتوحاته هذه المناطق المعروفة اليوم باسم نيجيريا. يقول الشيخ آدم: «وبقى أبو بكر قائدا عاما يفتح الممالك والأقاليم في السودان حتى شملت فتوحاته جميع الجهات المعمورة من شمال السنغال وشمال غانة وشمال الدهومى **وشمال نيجيريا**».[77] وتقدم قريبا أن المرابطين في جميع تحركاتهم لايستهدفون إلا نشر الاسلام وتطبيق الشريعة وتطهير المجتمع من الفساد. فجهادهم في السودان الغربي لايخرج عن شيء من ذلك بطبيعة الحال. يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن: «ومما هو جدير بالملاحظة أن هذا الغزو لم يكن غزوا سياسيا يرمي إلى التوسع الاقليمي وبسط سلطان المرابطين السياسي وإنما كان جهادا في سبيل الله ونصرة دينه».[78] وكان لهؤلاء المرابطين حماسة منقطعة النظير في سبيل تحقيق هذا الهدف من نشر الاسلام.[79] لهذا كان من الطبيعي أن يكون تأثيرهم في

(76) الاسقتصا ج 2 ص 22، القرطاس ص 136، تاريخ العلامة ابن خلدون ج 6 ص 377.
(77) الاسلام في نيجيريا ـــ للشيخ آدم ـــ ص 22-23.
(78) تاريخ الاسلام ـــ للدكتور حسن ابراهيم حسن ـــ ج 4 ص 287 (ط. السنة المحمدية بالقاهرة).
(79) راجع الدعوة إلى الاسلام ـــ لتوماس أرنولد ـــ ص 254.

السودانيين قويا وسريعا في آن واحد. وإلى جانب ذلك التأثير القوى والمباشر فإنهم غززوا نفوذ التجار العرب الذين كانوا يعملون على نشر الاسلام[80] كما أكدوا بفتوحاتهم الشعور الذي كان يساور السودانيون من أهمية إقامة العلاقات الودية مع سكان شمال أفريقيا الذين كان هؤلاء السودانيون يعتمدون عليهم اعتمادا مطلقا في الحصول على الملح كما تقدم.[81]

ومن جهة أخرى فإن قيام المرابطين بالقضاء على أقوى امبراطورية سودانية إذذاك وهي امبراطورية غانة، كان لابد وأن يجبر حتى السلاطين على التفكير الجدي في أمر هذا الدين الذي كان هؤلاء المرابطون متحمسين إلى نشره وكان من نتائج هذا التفكير أن أدرك هؤلاء السلاطين أن الاسلام يملك حلا حاسما ونهائيا لأعقد مشكلة كانت تواجه امبراطورياتهم. ذلك: «أن الولاء للملك كان دائما قبليا فكان من الصعب جدا ضمانه بالنسبة للقبائل غير التي ينتمي إليها الملك. فكان زعماء القبائل يغتصبون السلطة بكل سهولة باعتبار الملك أجنبيا وخاصة بالنسبة للقبائل المقيمة في الأماكن البعيدة عن مقر الأسرة الحاكمة. وإذا ما أرسل الملك رجاله الأقربين إلى هذه القبائل النائية لم يكن هناك تعاون بينهم وبين الأهالي لنفس السبب من اعتبارهم هؤلاء أجانب مضافة إلى أن هؤلاء المبعوثين من قبل الملك لتولي حكم الأقاليم النائية كثيرا ماكانوايسعون للاستقلال عن الملك»[82] فأدرك هؤلاء السلاطين أن الاسلام هو الذي يمكنه توحيد هذه القبائل وبالتالي ايجاد حل مناسب لمشكلة الحكم فرأوا أن من مصلحتهم الدنيوية قبل الأخروية أن يعتنقوا هذا الدين. وعندما يعلق الملك اسلامه يتوقع من رعاياه أن يحذوا حذوه، فتقوم قبيلة بأسرها باعتناق الاسلام إثر اسلام ملكها. وهكذا تعددت الأسباب والعوامل المساعدة لتقبل السوادنيين للاسلام فكان من ذلك أن انتشر الاسلام انتشارا واسعا وسريعا في آن واحد من يوم أن دخل المرابطون إلى السودان الغربي.

---

(80) راجع قضايا أفريقية ـــ للدكتور محمد عد الغني سعودى ص 76 (ط. الأنباء بالكويت).

(81) راجع ص 165 ـــ 166 من هذه المجلة.

(82) موجز تاريخ أفريقيا ـــ لأوليفر وفيج ـــ ص 89-90 ملخصا (باللغة الأجنبية والترجمة لي).

وقد يعمد بعض المستشرقين إلى تعليلات غير ما قدمنا فيزعم ـــ مثلما فعل دنيز بولم ـــ أن السودانيين إنما أسلموا خوفا من المرابطين[83] ولا يلتفت إلى أن هؤلاء السودانيين ظلوا مسلمين حتى بعد انسحاب المرابطين بل إنهم ضاعفوا من مجهوداتهم التي تستهدف ايصال هذا النور إلى إخوانهم الذين لم يتمكن المرابطون من التأثير عليهم تأثيرا مباشرا، وغير ذلك مما يكذب القول بأنهم إنما أسلموا من أجل الخوف. ومهما يكن من أمر فإن الذي لايختلف فيه اثنان هو أن السودانيين دخلوا في دين الله أفواجا بفضل الجهاد الذي قام به المرابطون، حتى صارت الحركة المرابطية وكأنها مبتدأ اسلام السودانيين.

يقول الشيخ آدم: ان أبا بكر بن عمر اللمتوني «لم يترك مدينة آهلة بالسكان من بلاد السنغال إلى حدود الكنغو إلا فتحها وصيرها بلادا اسلامية وعين عليها أميرا مسلما.[84] ويقول الدكتور حسن ابراهيم حسن: إن الدولة المرابطية «قامت بدور خطير في نشر الاسلام على الساحل الأفريقي الغربي وبلاد السودان»[85] ويقول الدكتور زاهر رياض: «كان الماندنجو قد اعتنقوا الاسلام في الأيام الأولى لحركة المرابطين».[86] ويقول توماس أرنولد: «كانت لمتونة وجدالة القبيلتان البربريتان اللتان تنتميان إلى عشيرة صنهاجة تتميزان بصفة خاصة بحماستهما الدينية في تحويل الناس إلى الاسلام وبجهودهم أثرت حركة المرابطين في قبائل السودان الوثنية .. وفي سنة 1076 طرد البربر الذين ظلوا وقتا ما ينشرون الاسلام في مملكة غانة الأسرة الحاكمة التي يحتمل أنها كانت أسرة فلبى وأسلمت هذه المملكة القديمة عن بكرة أبيها».[87] ويقول بروكلمان: «كان المرابطون في المغرب قد نشروا الاسلام في الأقاليم الآهلة بالزنوج ... حتى جنوبي الصحراء من السنغال حتى وادي النيل الأعلى ومنذ القرن الحادي عشر اعتنق أمراء غانة وتابعوهم حكام تكرور وملك مالي على نهر النيجر الأعلى نقول منذ القرن الحادي عشر اعتنق هؤلاء جميعا **دين سادتهم**، الاسلام».[88] ويقول

(83) الحضارات الأفريقية ـــ لدنيز بولم ـــ ص 70 (ترجمة نسيم نصر ط. البوليسية سنة 1974).

(84) الاسلام في نيجيريا ـــ للشيخ آدم ـــ ص 138.

(85) مجلة الأزهر السنة 34 ج 3 جمادى الأولى 1382 هـ أكتوبر 1962 م ص 295.

(86) الممالك الاسلامية في غرب أفريقيا ـــ للدكتور زاهر رياض ـــ ص 115.

(87) الدعوة إلى الاسلام ـــ لتوماس أرنولد ص 354.

(88) تاريخ الشعوب الاسلامية ـــ لكارل بروكلمان ـــ ج 4 ص 130.

الأستاذ فاجانا: «كان معظم سكان مملكة غانة القديمة وثنيين ... وفي القرن الحادي عشر الميلادي جاء جماعة من برابرة شمال أفريقيا وقضوا على غانة. ومن ذلك اليوم صار معظم سكان هذه المملكة **محمديين**».[89] ويقول الدكتور عبدول: «ان المرابطين حاربوا السودانيين حربا انتهت بالقضاء على مملكة غانة سنة 1076 م. وان القضاء على غانة يسر انتصار الاسلام على عامة غرب أفريقيا حيث ان شعوب غانة اعتنقوا الاسلام بصفة جماعية وأخذوا ينشرونه بين الشعوب الأخرى الخاضعة لحكم هذه الامبراطورية».[90] وغير ذلك من الشهادات.

هذا بالاضافة إلى آثار أخرى خلفها هؤلاء المرابطون كتأسيسهم مدينة تمبكتو العلمية[91] التي كان لها من الآثار في غرب أفريقيا ما لايقل عن أثر جهادهم المذكور. من مجموع ما تقدم ندرك أن المرابطين قاموا بدور بالغ الأهمية في ميدان نشر الاسلام في غرب أفريقيا. ومن جهة أخرى كان لسرعة تقبل السودانيين للاسلام أثرها في قصر مدة حكم المرابطين للسودان الغربي وذلك لما تقدم من أن جهادهم في غرب افريقيا لم يكن له من هدف سوى نشر الإسلام ولذلك لما رأوا السودانيين قد أسلموا وأخذوا يعملون بجد على نشر هذا الدين بين اخوانهم اعتبروا مهمتهم في السودان الغربي منتهية. وقد تفطن الأستاذ ابراهيم حركات إلى هذه الحقيقة فكتب يقول : «وبالرغم من أن المرابطين قاموا بجهاد حقيقي ضد الوثنيين فقد تغاضوا عن الامارات التي نشأت على أنقاض الامبراطورية الغانية المنهارة مقابل احتفاظها بالاسلام[92]».

بعد أن رأينا الدور الحاسم الذي قام به المرابطون في نشر الاسلام في غرب أفريقيا لم يبق علينا إلا أن نذكر بأن الاسلام الذي نشره المرابطون وبهذه الصفة الجماعية لم يكن مجرد اسلام وكيفما اتفق بل هو اسلام سنى قائم على

---

(89) نيجيريا وجيرانها — لفاجانا — ج 2 ص 75 (باللغة الانجليزية والترجمة لي).

(90) أصل الاسلام التاريخي — للدكتور موسى عبدول — ج 5 ص 106 (باللغة الانجليزية ..).

(91) نفس المصدر ج 5 ص 109، وراجع كذلك: العلم السياسي، السنة الأولى العدد 2 غشت 1982 ص 2، مجلة الوعي الاسلامي العدد 59 السنة 5 ذي القعدة 1309 هـ ص 63.

(92) العلم السياسي، السنة الأولى العدد الثاني، غشت 1982 م ص 3.

مذهب إمام دار الهجرة. فقد تقدم أن الدولة المرابطية دولة قائمة على المذهب المالكي. بل كنا أشرنا إلى رأى الدكتور حسن ابراهيم حسن أنها لم تكن قائمة على المذهب المالكي فحسب بل إنها ما قامت إلا لنصرة المذهب المالكي وذلك بعد أن سئم الناس من الصراعات المذهبية في المغرب(93).

يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن: «وأما عن المذهب المالكي الذي كان عبد الله بن ياسين يدين بتعاليمه فإن الاسلام لم يكد يستقر في المغرب حتى تعرض للاختلافات المذهبية التي انتشرت في الشرق الاسلامي زهاء ثلاثة قرون حتى قدر للمذهب المالكي أن تكون له السيادة بعد أن ظل في صراع مستمر مع غيره من المذاهب. وكانت سيادة هذا المذهب من أبرز نتائج الدعوة المرابطية. ويظهر أن فقهاء المذهب المالكي ظلوا ــ منذ سقوط دولة الادارسة سنة 375 هـ إلى قيام الدولة المرابطية ــ في صراع مع المذاهب الأخرى من شيعة وخوارج وبرغواطية عاملين على توطيد مذهبهم فأقاموا شبكة من المراكز ... وإذا كانت الخصومة قد اشتدت بين المالكية السنيين وبين الدويلات التي قامت في المغرب من شيعيين وخوارج وبرغواطيين فإن المالكية قد ظلوا خلال هذا الصراع يعقدون الآمال على ظهور زعامة اسلامية توحد العالم الاسلامي وتعيده إلى السنية والسلفية»(94).

ويقول: «وإذا كان الفقيه المالكي وجاج بن زللو اللمطي قد تحمل مشاق الرحلة من الجنوب المغربي ليأخذ العلم على الفقيه أبي عمران الفاسي المالكي في القيروان ثم يعود إلى هذا الجنوب المغربي ليؤسس مدرسة الفقه المالكي تضم طائفة من أبناء الجنوب رغبة في إعداد جيل يقوم بنصرة هذا المذهب فقد كان عبد الله بن ياسين أحد هؤلاء التلاميذ الذين كانوا يهيأون للقيام بهذا الدور الذي يتفق وأهداف المالكية. وليس من شك في أن غرض وجاج بن زللو في مدرسته بنفيس قد تحقق في شخص عبد الله بن ياسين الذي لم يغادر نفيس يوم ندبه شيخه للتوجه إلى الصحراء مع الأمير الملثم يحيى بن عمر إلا وهو مؤمن بأن المغرب في حاجة ملحة إلى الاصلاح وأن أستاذه لم يندبه للرحيل إلى بلاد صنهاجة إلا لثقته فيه لأن يبني قوة حربية وجهازا سياسيا يتفق وأهداف المذهب المالكي»(95).

(93) راجع ص 155 من الجزأ الأول من رسالة الباحث المذهب المالكي في نيجيريا مرقونة.

(94) تاريخ الاسلام ــ للدكتور حسن ابراهيم حسن ــ ج 4 ص 291.

(95) نفس المصدر ج 4 ص 291-292 (ط. مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة ط. 1 عام 1967).

فإن صح هذا الرأي بأن كانت الدولة المرابطية لم تقم إلا لنصرة المذهب المالكي وفق خطة رسمها المالكيون بعد أن سئم الناس من التطاحن المذهبي في المغرب، فذلك يغنينا عن كل تعليق. وإذا لم يكن الأمر كذلك تماما بأن كانت الدولة المرابطية إنما قامت لنصرة الاسلام ولكنها اختارت المذهب المالكي لأن قادتها كانوا مالكيين أو للأسباب التي ذكرناها عند الحديث عن انتشار المذهب المالكي في المغرب وقلنا إنها هي التي أدت إلى تشبث المغرب بالمذهب المالكي ومحاربته لكل ما سواه من المذاهب[96] فلا يضر ذلك كثيرا فيما نحن بصدده من حيث إننا رأينا أن هؤلاء المرابطين ـ مهما كانت أسباب قيام دعوتهم ـ لم يسمحوا للمذاهب الأخرى أن تزاحم المذهب المالكي في المغرب البلد الاسلامي الأصيل الذي تمكنت فيه المذاهب وتصارعت قبل قيام الحركة المرابطية، فبالأحرى أن يسمحوا لهذه المذاهب أن تزاحم المذهب المالكي في السودان الغربي الذي لم يتمكن فيه الاسلام نفسه فضلا عن المذاهب قبل مجيء هؤلاء المرابطين. وهكذا انتشر المذهب المالكي حيثما قام المرابطون بنشر الاسلام. وبذلك يتضح أنهم قاموا بأبرز الأدوار في نشر المذهب المالكي في غرب أفريقيا.

أما بالنسبة لشمال نيجيريا على وجه التخصيص فإن أهمية الدور الذي قام به المرابطون لاتقتصر على ما سبق أن ذكرناه من امتداد فتوحاتهم حتى شملت هذه المناطق بل تظهر أيضا في أن الممالك التي قامت بغرب أفريقيا والتي أسلمت على أيديهم وتمذهبت بمذهبهم فإنها قامت بعد ذلك بنشر المذهب المالكي إلى سائر أجزاء نيجيريا التي لم يمتد إليها التأثير المرابطي من قبل بشكل عميق. وكان مما يسر لها ذلك أن نيجيريا نفسها كانت جزءا لا يتجزأ من أجزاء هذه الممالك السودانية القديمة. وعلى هذا فإن دور المرابطين في نشر المذهب المالكي في نيجيريا منه ما هو مباشر ومنه ما ليس بمباشر: أما دورهم المباشر فيتمثل في قيامهم بنشر هذا المذهب إلى شمال نيجيريا كما رأينا، وأما دورهم غير المباشر فيتمثل في قيام الممالك السودانية القديمة والتي أسلمت على أيديهم، بنشر هذا المذهب في سائر أجزاء نيجيريا وتعميق جذوره فيها حتى بلغ ذلك ذروته بقيام دولة مالكية مرابطية في نيجيريا على يد المجدد الاسلامي الكبير والمجتهد المالكي الأعظم في نيجيريا: الشيخ عثمان بن فودى.

(96) راجع ص 146-155 الجزأ الأول من رسالة الباحث.

المبحث الثالث

دور مملكة غانة القديمة

لقد شهد السودان الغربي ألوانا مختلفة من الدول وعرف أشكالا متباينة من الحكومات في مختلف العصور المتعاقبة من الزمان. تأسست بعض تلك الممالك على أيدي السودان من السكان الأصليين، وسبق البيضان إلى تأسيس بعضها قبل أن تنتقل إلى السودان[97]. وأقدم هذه الممالك على الاطلاق هي

---

(97) لقد اشتهرت بعض هذه الممالك عند العرب شهرة مستفيضة حتى زارها كثير من رحالتهم وكتبوا عنها في مؤلفاتهم. وكان ممن كتب عنها: ابن حوقل في المسالك والممالك والبكري في المسالك والممالك وابن الفقيه في البلدان، والاصطخري في المسالك والممالك، وياقوت الحموى في معجم البلدان، والقزويني في آثار البلاد، وابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار، وابن بطوطة في تحفة النظار، وابن خلدون في العبر، والقلقشندى في صبح الأعشى. إلا أن النصوص عن هذه الممالك السودانية جاءت مبعثرة في بطون تلك المؤلفات كما سنرى في الصفحات الآتية.

وتعتبر مؤلفات المغاربة من أروع ما كتب عن هذه الممالك. فقد تحدث الدكتور أولا وإلى الياس المفكر النيجيري الكبير الذي كان عميدا بمعهد الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن، وممتحنا بجامعات لندن واكسفورد وغيرهما من الجامعات البريطانية، وأستاذا في مختلف الجامعات في العالم (راجع ترجمته في مقدمة كتابه: الحكم والسياسة في أفريقيا ــ ترجمة أو تعريب ميشيل مسيحة ط. الدار القومية بالقاهرة سنة 1966 م) تحدث الدكتور الياس المذكور عن قلة الكتب المتحدثة عن هذه الممالك بصفة عامة فقال إن كتاب ابن بطوطة يعتبر من أروع ما كتب في الموضوع على الاطلاق وبين كذلك أن مما له منزلة قريبة مما لكتاب ابن بطوطة كتابات ابن خلدون وليو الأفريقي. (راجع: الحكم والسياسة في أفريقيا للمؤلف المذكور ص 15) وكل هؤلاء مغاربة. أما ابن بطوطة وابن خلدون فلا كلام فيهما، أما ليو الأفريقي فهو الحسن الوزان المغربي المولود في غرناطة من والدين مغربيين رفيعي المنزلة. وسبب تحول اسمه أنه «رحل إلى السودان الغربي في حوالي سنة 1510 م» (راجع نيجيريا وجيرانها ــ لفاجانا ــ ج 2 ص 90) وجال في مملكة سنغاي وفي بلاد الهوسا في شمال نيجيريا الحالية ودون مشاهداته ولكنه أثناء عودته وقع أسيرا في أيدي القرصان المسيحيين وكانوا سيحملونه إلى أسواق الرقيق كغيره من الأسرى لولا أنهم وجيدوه على صغر سنه ذكيا ذكاء غير عادي فحملوه «إلى روما وقدموه إلى البابا ليو العاشر مؤملين أن يحوله إلى مصير أفضل مما هم مستطيعوه أن يفعلوا به في أسواق الرقيق». (راجع الممالك الاسلامية في غرب أفريقيا ــ للدكتور زاهر رياض ص 157) «فأطلق البابا سراحه وأدخله في المسيحية وشق له اسما من اسمه فصار يعرف بليو الأفريقي» (راجع: نيجيريا وجيرانها ــ لفاجانا ج 2 ص 92). وكان كتابه المذكور «مسودة بالعربية حين وقع في الأسر ... وفي سنة 1526 أكمله باللغة الايطالية». (نفس المصدر ونفس الصفحة).

وكما كتب المغاربة عن هذه الممالك فأجادوا، فكذلك كتب عنها علماء نيجيريا أمثال الشيخ آدم والشيخ محمد بللو والأستاذ بووا والأستاذ فاجانا وغيرهم. وسنعتمد على كل ذلك هنا في ابراز الدور الذي قامت به هذه الممالك في تعميق جذور المذهب المالكي في نيجيريا.

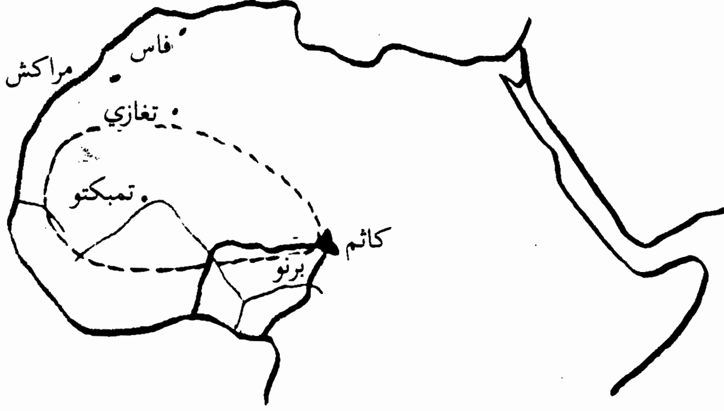
مملكة غانة القديمة.[98] وأصل معنى غانة كما بين الدكتور موسى عبدول: قائد حربي[99]. ويقول ياقوت الحموي في تعريف مادة غانة: «كلمة عجمية لا أعرف لها مشاركا في العربية. وهي مدينة كبيرة في جنوبي بلاد المغرب متصلة ببلاد السودان يجمع إليها التجار ومنها يدخل في المغازات إلى البلاد التبر ولولاها لتعذر الدخول إليهم لأنها في موضع منقطع عن الغرب من بلاد السودان».[100]

أما غانة كمملكة لامجرد مدينة على ما يظهر من كلام الحموى، فقد اختلف المؤرخون في تاريخ نشأتها وفي أصلِ مؤسسيها. ويرى اليعقوبي أن أصلهم من ولد حام بن نوح[101]. ويقول الشيخ آدم: «نشأت هذه المملكة منذ القرن الثاني الميلادي وتولى عليها نحو أربعة عشر ملكا من البيض قبل أن تتحول إلى السود. وربما كان أولائك البيض من القرطاجنيين أو الرومان الذي اختلطوا بقوم من السكان الأصليين».[102] ويقول الأستاذ فاجانا: إنها نشأت في القرن الثاني من قبيلة سودانية قبل أن يلتحق بها عناصر بيضاء من شمال أفريقيا.[103] ويقول الدكتور الياس أنها نشأت سنة 300 م وعاشت سبعة قرون ونصف بلا انقطاع حتى اكتسحها المرابطون سنة 1076 م وبعد ذلك اسمترت «حتى سنة 1248 م عندما دمرها سندياتا الذي اعتلى عرش مالي سنة 1230 م»[104]. ويقول دنيز بولم: «وفي القرن الرابع كانت دولة غانة التي أسسها على الأرجح رهط من البيض ثم خلفتهم على عرشها سلالة سوداء في القرن الثامن وقد سيطرت هذه الامبراطورية على كل السودان الغربي في القرن العاشر».[105]

وفي القرن الحادي عشر الميلادي بلغت هذه المملكة أوج مجدها. يقول الدكتور شوقي الجمل: «بلغت أوج مجدها في القرن الحادي عشر الميلادي وقد

(98) الحكم والسياسة لالياس 15.
(99) أصل الاسلام لعبدول 108/5.
(100) معجم البلدان للحموى 263/6.
(101) تاريخ اليعقوبي 191/1.
(102) الاسلام في نيجيريا لآدم 20.
(103) نيجيريا وجيرانها لفاجانا 73/2.
(104) الحكم والسياسة ص 15.
(105) الحضارات الأفريقية ص 69.

خريطة مملكة غانة القديمة



ملاحظة : هكذا وصفها الدكتور الياس في كتابه الحكم والسياسة في أفريقيا ودنيز بولم في كتابه الحضارات الأفريقية ص 69.



ملاحظة : هكذا رسمها الأستاذ بووا في كتابه العالم القديم ج 1 ص 177، والظاهر أنه يقصد بذلك أصل المملكة قبل امتداد رقعتها إلى المناطق المجاورة.

خضعت لها عدة مدن ووصلت حدودها من الشرق إلى نهر النيجر»[106] وقد ضمت هذه المملكة أجزاء شاسعة من أراضي نيجيريا الحالية. يقول الدكتور الياس في بيان حدود هذه المملكة: «كانت امبراطورية غانة على حسب الخرائط التي رسمت إلى حد كبير على أساس وصف الأماكن والأحداث[107] تمتد من أراضي المغرب فيما وراء مراكش شرقا إلى غرب السودان الحديث وتمتد غربا إلى أجزاء داخلية من السنغال وغمبيا وسيراليون وجنوبا إلى أقاليم نيجيريا الشمالية المعروفة باسم كانم وبرنو وسكوتو».[108]

وامتداد رقعة هذه المملكة بهذا الشكل هو بلا شك مما يؤكد صحة ماسبق أن تحدثنا عنه من متانة علاقاتها بالشمال حتى قيل إن بعض رعاياها أسلموا على يد عقبة بن نافع.[109] وزارها محمد البكري سنة 1028 م ووصف حالة الاسلام فيها نذكر «أنه وجد غانة مقسومة إلى قسمين عظيمين: الحي الوثني والحي الاسلامي وفي الحي الاسلامي اثنا عشر مسجدا تقام الجمعة في أكبرها وفي كل مسجد إمام ومؤذن وقارىء ومعلم. وفي الحي الوثني قرب القصر الملكي مسجد يصلي فيه المسلمون من حاشية الملك».[110] وهكذا استمر الاسلام يسير مع الوثنية جنبا إلى جنب حتى جاء المرابطون فدخل الناس في دين الله أفواجا وتمذهبوا بالمذهب المالكي كما تقدم[111].

ولما كان شمال نيجيريا جزءا لا يتجزأ من أجزاء هذه المملكة كما رأينا فقد كان من الطبيعي أن يكون لها دور بارز في تعميق جذور المذهب المالكي فيه. ثم إنه بعد أن قضى المرابطون على هذه المملكة هاجر الوناغرة من رعاياها، وكانوا مالكيين، واستقروا في مدينة كاشنة ومدينة كانو في شمال نيجيريا وعملوا على تقوية المذهب المالكي فيهما. يقول الشيخ آدم: «وعلى أيدي الونغاريين الغانويين

---

(106) تاريخ كشف أفريقيا 65.

(107) راجع ص 187 حيث الخريطة.

(108) الحكم والسياسة 16.

(109) راجع ص 166 ـــ 171 من هذه المجلة.

(110) الاسلام في نيجيريا للشيخ آدم ص 21.

(111) راجع ص 181 من هذه المجلة.

انتشر الاسلام إلى بلاد كاشنة وكان بالقرن الخامس الهجري وذلك بعد سقوط دولتهم وانتشارهم في مختلف الأنحاء والأرجاء(112).

ولكن أهم الدور الذي قامت به هذه المملكة في سبيل تعميق الفقه المالكي في نيجيريا إنما يتجلى في الدور الذي قامت به في ذلك مدينتها العلمية الشهيرة : تمبكتو التي تطورت من محطة لتجميع البضائع وملتقى لطرق القوافل الصحراوية إلى مركز لاستقطاب حفاظ المذهب المالكي وكعبة يحج إليها كل من يرغب في التعمق في الفقه المالكي من أبناء نيجيريا وغيرها.(113) وهو دور كغيره من أدوار هذه المملكة له ارتباط وثيق بالمرابطين فقد تقدم أن المرابطين هم الذين أنشأوا هذه المدينة.(114) وكان للمغرب علاقة وثيقة بتطورها وتزايدها بالعلماء والأئمة والكتب(115) ثم إننا سنرى أن حفاظ المذهب المالكي الذي كانت هذه المدينة تزخر بهم سينتهون بالهجرة إلى نيجيريا ليستقروا فيها بصفة نهائية(116) ويرسخوا فيها أركان المذهب المالكي. وهكذا يتضح أن المملكة الغانية قامت بدور بالغ الأهمية في سبيل نشر المذهب المالكي في نيجيريا.

---

(112) الاسلام في نيجريا لآدم ص 21.

(113) راجع مجلة العربي العدد 244 ربيع الثاني 1399 هـ ص 68-91.

(114) راجع ص 182 من هذه المجلة.

(115) الممالك الاسلامية للدكتور زاهر ص 119.

(116) راجع ص 217 و 232 ــ 233 من هذه المجلة.

المبحث الرابع

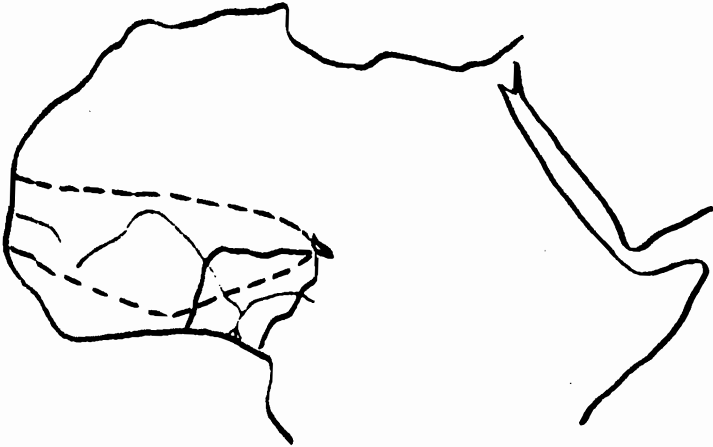
دور مملكة مالي

ومن أعظم الممالك السودانية القديمة التي لعبت دورا عظيما في تعميق جذور الفقه المالكي في نيجيريا: مملكة مالي. وكان تأسيس هذه المملكة «منذ زمن بعيد وتملك عليها اثنان وعشرون ملكا من البيضان ولما انقرضوا خلفهم السودان وقد أدرجتها غانة في مملكتها ردحا من الزمان. والزعيم الذي حرر مالي من نير غانة هو المسمى ماري جاطة»[117].

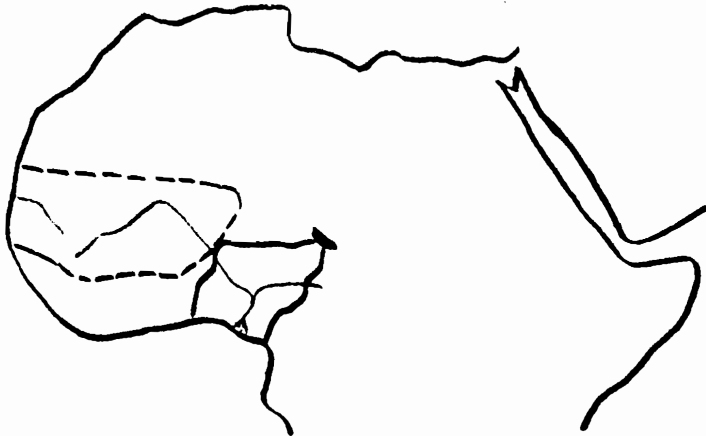
ولم يكن ماري جاطة يعرف بهذا الاسم في أول أمره بل كان يعرف باسم سندياتا ولم تكن مملكته أيضا تعرف بهذا الاسم في أول أمرها ولا في أيام تبعيتها لمملكة غانة بل كانت تعرف باسم كنغايا. وكانت كنغايا هذه مملكة اسلامية صغيرة في جنوب امبراطورية غانة[118]. ولكنها أخذت تنمو وتتقوى حتى صارت مملكة قوية في القرن الحادي عشر الميلادي فخشى امبراطور غانة من عواقب قوتها فأغار عليها وقتل جميع الأمراء الذين يشكلون خطرا على عرش غانة وترك أميرا صغيرا أعرج اسمه سندياتا وذلك لظنه أن مثله لا يمكن أن يهدد سلامة امبراطوريته وكان ذلك خطأ فادحا إذ لم تمر على سندياتا إلا فترة وجيزة حتى شفى وترعرع ليصبح محاربا بارعا ولم يلبث أن اعتلى عرش كنغايا ونظم الجيش وغير اسمه إلى ماري جاطة ومعنى ماري: الأمير، ومعنى جاطة: الأسد. وفي سنة 1240 م حاول امبراطور غانة أن يقضي على ماري جاطة وجيشه فدارت بين الطرفين معركة شرسة انتهت بتدمير غانة والقضاء على أمجادها. وبعد

(117) الاسلام في نيجيريا — للشيخ آدم عبد الله الألورى — ص 23 (ط. دار التربية ط. 2).
(118) انظر إلى الخريطة

خريطة مملكة مالي



ملاحظة : هكذا وصفها الدكتور موسى عبدول في كتابه أصل الاسلام التارخي ج 5 والشيخ آدم في كتابه الاسلام في نيجيريا ص 24.



ملاحظة : هكذا رسمها الأستاذ بووا في كتابه العالم القديم ج 5 ص 187.

ذلك تحول مارى جاطة من عاصمته القديمة في جاريبا في الجنوب إلى عاصمة جديدة بناها في وسط امبراطوريته المترامية الأطراف التي عرفت فيما بعد باسم مالي.[119]

وهكذا قامت مملكة مالي التي قدر لها أن تقوم بدور بالغ الأهمية في مجال ترسيخ أركان المذهب المالكي في نيجيريا. و لم تكن مملكة مالي متحدة في أول أمرها فخاض مارى جاطة مزيدا من المعارك لتوحيدها كما اهتم بتوسيع حدودها إلى الأقاليم المجاورة حتى شملت معظم أراضي شمال نيجيريا. يقول الدكتور عبدول: «وامتدت الامبراطورية في عهد مارى جاطة إلى كانو وكاشنة وزاريا في شمال نيجيريا، وفي الجنوب امتدت إلى الساحل».[120]

«وأصبحت مالي بذلك أقوى ممالك السودان الغربي».[121] وبعد وفاة مارى جاطة خلفه على عرش مالي ابنه ولي واتخذ لقب منس «ثم صار سلاطين مالي بعده يحملون هذا اللقب».[122] يقول القلقشندى: «ثم ملك بعده منسى ولي ومعنى منسى بلغتهم: السلطان ومعنى ولي: على وكان من أعظم ملوكهم».[123]

ثم توالى السلاطين على عرش مالي حتى جاء أعظمهم على الاطلاق وهو منسى موسى الذي اعتلى عرش مالي سنة 1307 م واهتم بتوسيع الامبراطورية المالية حتى شملت جميع أجزاء مملكة غانة القديمة التي رسمنا حدودها سابقا[124] وامتد جنوبا حتى شملت أراضي بلاد يوربا في غرب نيجيريا، كما اهتم بنشر الاسلام حتى أسلمت هذه القبائل النيجيرية الجنوبية فضلا عن الشمالية. جاء في صبح الأعشى ما نصه: «فولى منهم منسى موسى بن أبي بكر. قال في العبر كان رجلا صالحا وملكا عظيما له أخبار في العدل تؤثر عنه وعظمت المملكة

---

(119) العالم القديم — للأستاذ بووا — ج 1 ص 184-186 ملخصا (باللغة الأجنبية والترجمة لي).

(120) أصل الاسلام التاريخي — للدكتور موسى عبدول — ج 5 ص 110 (باللغة الأجنبية ...)

(121) الممالك الاسلامية في غرب أفريقيا — للدكتور زاهر رياض — ص 116.

(122) العالم القديم — للأستاذ بووا — ج 1 ص 186.

(123) صبح الأعشى ج 5 ص 293.

(124) راجع ص 187 — 191 من هذه المجلة.

في أيامه إلي الغاية وافتتح الكثير من البلاد. قال في مسالك الأبصار حكى بن أمير حاجب والي مصر عنه أنه فتح بسيفه وحده أربعا وعشرين مدينة من مدن السودان ذوات أعمال وقرى وضياع»[125] ويقول الشيخ آدم: «اهتم منسى موسى بتوسيع رقاع مملكته في بلاد السودان حتى شملت أرض غانة وسنغاي والسنغال وبلاد هوسا وبرنو ويوربا في نيجيريا. وفي عهده انتشر الاسلام إلى بلاد يوربا فصار يعرف بدين مالي حتى يومنا هذا».[126] وذكر الدكتور عبدول مثل ذلك وأضاف أن منسى موسى لم يقتصر على نشر الاسلام ولكنه إلى جانب ذلك «قام ببناء المساجد في جميع أرجاء مملكته واهتم بمراسيم صلاة الجمعة كما اهتم بشؤون القضاء اهتماما بالغا»[127].

ولقد كان من نتائج اهتمام منسى موسى بشؤون القضاء إلى جانب عدله وصلاحه الذين كانا موضع اعجاب الجميع، أن عم الأمن جميع أرجاء مملكته كما كان من نتائج اهتمامه البالغ بنشر الاسلام وإقامة شعائره أن اهتم رعاياه بإقامة هذه الشعائر حتى صاروا يضربون أولادهم عليها واستمروا على ذلك حتى بعد وفاة منسى موسى فكان ذلك مما أعجب ابن بطوطة الذي زار هذه المملكة بعد وفاة منسى موسى فكتب يقول: «من أفعالهم الحسنة قلة الظلم فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لايسامح أحدا في شيء منه، ومنها شمول الأمن في بلادهم فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان القناطير المقنطرة وإنما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه ومنها مواظبتهم للصلوات والتزامهم لها في الجماعات وضربهم أولادهم عليها. وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الانسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام ... ومنها لباسهم الثياب الحسان يوم الجمعة ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة»[128].

---

(125) بح الأعشى ج 5 ص 294.

(126) الاسلام في نيجيريا ـــ للشيخ آدم ص 24.

(127) أصل الاسلام التاريخي ـــ للدكتور موسى عبدول ـــ ج 5 ص 111.

(128) رحلة ابن بطوطة ص 672-673.

وجل ذلك في الواقع امتداد لأثر المرابطين كما لايكاد يخفى. فقد كان المرابطون يضربون الناس على الجماعة حتى وجد منهم من يضطر للصلاة بغير وضوء وقد عد ابن عذارى ذلك مما شذ فيه عبد الله بن ياسين من الأحكام فقال : «ومن يتخلف عن مشاهدة الصلاة مع الجماعة ضرب عشرين سوطا ومن فاتته ركعة ضرب خمسة أسواط فكان أكثرهم يصلون بغير وضوء إذا حان الوقت وأعجلهم الأمر من أجل الضرب» [129] فانطبع سكان غرب أفريقيا بذلك حتى صار الحرص على صلاة الجماعة من مميزات المسلمين في نيجيريا اليوم.

وفوق هذا وذاك عمل منسى موسى على توطيد أركان الفقه المالكي وذلك بنشر العلم وجلب فقهاء المذهب من المغرب وغيره. فقد «شجع العلم .. وبنى المدارس ومراكز التعليم المتعددة»[130]. وذلك أيضا امتداد لأثر المرابطين الذين كان أساس دعوتهم العلم[131]. وقد اجتهد منسى موسى في تشجيع العلم حتى صار شعبه يجبرون أبناءهم على الدراسة فكان ذلك مما أعجب ابن بطوطة أيضا. فقد ذكر ابن بطوطة مما أعجبه من أفعال السودانيين إلى جانب ما تقدم: «عنايتهم بحفظ القرآن العظيم وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه فلا تفك عنهم حتى يحفظوه. ولقد دخلت على القاضي يوم العيد وأولاده مقيدون فقلت له ألا تسرحهم؟ فقال: لا أفعل حتى يحفظوا القرآن. ومررت يوما بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة وفي رجله قيد ثقيل فقلت لمن كان معي: ما فعل هذا، أقتل؟ ففهم عنى الشاب وضحك وقيل لي: إنما قيد حتى يحفظ القران».[132]

وكان المغرب يغذي هذه المراكز المذكورة بالعلماء ويزود المساجد بالأئمة[133] وكل ذلك كان له أعمق الأثر في توطيد أركان المذهب المالكي في

---

(129) البيان المغرب لابن عذارى ص 16-17.

(130) العالم القديم لبووا ج 1 ص 188.

(131) النبوغ المغربي ج 1 ص 75.

(132) رحلة ابن بطوطة 673.

(133) راجع : الممالك الاسلامية في غرب أفريقيا للدكتور زاهر رياض ص 119 (ط. الفنية بالقاهرة) وكذلك: العالم القديم للأستاذ بووا ج 1 ص 188.

مملكة مالي وبالتالي في شمال نيجيريا الذي كان اقليما من أقاليم هذه الامبراطورية. ثم كان من شدة حرص منسى موسى على نشر العلم والمذهب المالكي مضافة إلى دعم المغرب لمجهوداته كما رأينا، أن ارتفع مستوى جامعة سنكورى العتيدة في تمبكتو «إلى مستوى لايقل عن مستوى الجامعات في يومنا هذا»[134] حتى صار «يؤمها الشيوخ وطالبوا العلم من الدول الأخرى».[135] ولكن يبدو أن منسى موسى نفسه لم يدرك حقيقة المستوى الذي وصلت إليه جامعته السنكورية بفضل العلماء المغاربة. فقد حمله شغفه بجلب العلماء على محاولة تنويع مصدر اساتذتها فأتى بعالم من مكة المكرمة ليتولى التدريس في هذه الجامعة، ولكن الرجل وجد بها أعلاما أكثر دراية بالعلم منه مما اضطره إلى الرحيل إلى مدينة فاس التي كانت آنذاك ــ ولا تزال ــ كعبة القاصدين ومنتهى العلماء المتخصصين، وذلك لاتقان مادته قبل القيام بالمهمة التي كلفه بها منسى موسى. يقول الأستاذ بووا: «كان مستوى التعليم مرتفعا إلى درجة أن الأستاذ الذي أحضره منسى موسى اضطر للسفر إلى المغرب للدراسة الاضافية مدتها ثلاث سنوات قبل أن يستطيع التدريس في سنكور».[136] ويقول الشيخ آدم: ان منسى موسى: «أحضر معه من مكة عالما عربيا ليتولى التدريس في جامعة سنكورى المذكورة ولكن الرجل وجد بها اعلاما أكثر دراية بالعلم منه.فتوجه الرجل إلى مدينة فاس وبقي بها ثلاث سنوات يتعمق في العلوم قبل أن يستطيع العودة إلى تمبكتو ليبدأ التدريس فيها».[137]

ومن جهة أخرى فإننا نلاحظ أن رحلة الحج المشار إليها ــ والتي قام بها منسى موسى وجلب عند عودته منها عالما عربيا ليتولى التدريس في الجامعة السنكورية ــ كان لها من الأثر في نشر الاسلام وتقوية أركان المذهب المالكي في غرب أفريقيا، ما لايقل شأنا عن سائر الأعمال الجليلة التي قام بها منسى موسى والتي تحدثنا عنها إلى الآن. ذلك أن هذه الرحلة بلغت من الضخامة منتهاها حتى تركت أثرا عميقا في كافة أرجاء العالم الاسلامي فضلا عن الامبراطورية

(134) العالم القديم ــ لبووا ــ ج 1 ص 188 (باللغة الانجليزية والترجمة لي).

(135) تاريخ أفريقيا ــ لرولاند وفيج ــ ص 36 (ترجمة د. عقيلة محمد ط. الدار القومية 1964).

(136) العالم القديم ــ لبووا ــ ج 1 ص 188.

(137) الامام المغيلي وآثاره في الحكومة الاسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا ــ للشيخ آدم عبد الله الألورى ــ ص 9-10 (ط. مطبعة الحلبي بمصر ط. 1 سنة 1974 م).

المالية. وكان حجه المذكور «سنة أربع وعشرين وسبعمائة في أيام الناصرية محمد بن قلاوون».[138] وقيل سنة 725 هـ. يقول الدكتور زاهر: «خرج منسى موسى للحج في سنة 1324 م / 725 هـ وهي السنة السابعة عشر من حكمه تصحبه حجافل من أتباعه من أهل وانجارا وولاتا وتوات»[139] وكانت هذه الجحافل من أتباعه عبارة عن 60000 رجل بينهم 12000 من العبيد يلبسون الديباج والحرير الفارسي و 500 عبد يحمل كل منهم عصا من الذهب و 100 جمل يحمل كل منها ثلاثة قناطير من الذهب[140]. وسار هذا الموكب الرهيب مارا بمدينة كانو ومدينة كاشنة النيجير يتين في طريقه إلى القاهرة ومنها إلى مكة المكرمة.[141] ويقال أنه كان يبنى مسجدا حيثما توقف الموكب يوم الجمعة.[142] إذ لم تكن هذه الأموال الضخمة التي كان يحملها الا لأعمال البر إلى جانب نفقات الحج. وكان أجود ما يكون في القاهرة فإنه لما وصل إليها «قدم للخزانة السلطانية حملا من التبر ولم يترك أميرا ولا رب وظيفة سلطانية إلا بعث إليه بالذهب»[143]. لايدفعه إلى ذلك إلا مجرد الكرم، فقد رفض في الأول أن يقابل السلطان نفسه حتى كان السلطان هو الذي أرسل إليه وذلك أنه كان يخشى إذا ما قابل السلطان أن يطلب إليه تقبيل الأرض بين يديه وكان يرى مثل هذا العمل مخالفا للمذهب المالكي الذي كان متشبثا به هو ورعاياه.

يقول الدكتور زاهر في توضيح ذلك: «فبالرغم من ضخامة رحلته فإن حجه يبدو أنه لم يكن ذا دوافع سياسية إذ رفض أولا أن يقدم الهبات المعتادة لسلطان المماللك بسبب عدم الرغبة في تقبيل الأرض بين يديه».[144] ويقول باذل دفدسن: قال صاحب المذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك يصف هذا الحج الذائع الصيت: «لما قدم إلى مصر سنة 1324 م بهدايا جليلة

(138) صبح الأعشى ج 5 ص 295.
(139) الممالك الاسلامية في غرب أفريقيا للدكتور زاهر ص 117.
(140) نيجيريا وجيرانها لفاجانا ج 2 ص 80.
(141) أصل الاسلام التاريخي للدكتور عبدول ج 5 ص 110.
(142) نيجيريا وجيرانها لفاجانا ج 2 ص 80.
(143) صبح الأعشى ج 5 ص 295.
(144) الممالك الاسلامية للدكتور زاهر ص 117.

وذهب كثير أرسل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون المهمندار لتلقيه وركب به إلى القلعة في يوم الخدمة فامتنع أن يقبل الأرض وقال للترجمان: أنا مالكي المذهب ولا أسجد لغير الله،[145] فأعفاه السلطان من ذلك وقربه وكرمه وسأله عن سبب مجيئه فقال أردت الحج فرسم للوزير أن يجهزه بكل ما يحتاج إليه».[146] وورد في صبح الأعشى رواية تفيد أنه قبل الأرض مع التأويل. يقول القلقشندى «فلما صار إلى الحضرة السلطانية قيل له: قبل الأرض فتوقف وأبى إباء ظاهرا وقال كيف يجوز هذا؟ فأسر إليه رجل كان إلى جانبه كلاما فقال: أنا أسجد لله الذي خلقني وفطرني ثم سجد وتقدم إلى السلطان فقام له بعض القيام وأجلسه إلى جانبه وتحدثا طويلا».[147].

ولم يقتصر كرم منسى موسى في القاهرة على أصحاب السلطة بل طرح في أسواقها من الذهب ما أدى إلى هبوط قيمته هبوطا شديدا وظل الأمر كذلك لمدة طويلة كما ظل ذلك حديث الناس لأكثر من اثنى عشرة سنة[148]. يقول الدكتور شوقي جمل: «وكثرت الروايات عن بعثة الحج هذه وما أنفقه فيها ــ سواء في القاهرة في طريقه للحجاز أو في المدن المقدسة ــ من ذهب فقد قيل أنه كان ضمن قافلته 100 جمل يحمل كل منها ثلاثة قناطير من الذهب وأن ما طرحه من ذهب في سوق القاهرة أدى لهبوط قيمته هبوطا شديدا وظل كذلك مدة طويلة».[149] ويقول الدكتور زاهر: «وجد العمرى الذي كان في القاهرة بعد زيارة منسى موسى باثنى عشرة سنة أن الناس لا يزالون يشيدون بمدحه».[150] ولم يقتصر كرمه على القاهرة إذ في «المدن المقدسة استفاضت هداياه»[151] حتى إن هذه القناطير المقنطرة من الذهب لم تكف لنفقات حجه

(145) لا يجوز لمسلم أن يقبل الأرض إلا أن يجبر على ذلك كما أوضح شيخ الاسلام ابن تيمية (راجع مجموع الفتاوى ج 1 ص 372) وليس ذلك خاصا بالمالكيين كما يوهم كلام منسى موسى.

(146) أفريقيا تحت أضواء جديدة ــ لباذل دافدسن ص 147 تعليقا (ط. دار الثقافة بيروت).

(147) صبح الأعشى ج 5 ص 295.

(148) نيجيريا وجيرانها ــ لفاجانا ــ ج 2 ص 80.

(149) تاريخ كشف أفريقيا ــ للدكتور شوقي الجمل ــ ص 66 (ط. الفنية بالقاهرة 1971 م).

(150) الممالك الاسلامية في غرب أفريقيا ــ للدكتور زاهر ــ ص 117.

(151) نفس المصدر ص 118.

المذكور. فقد ذكر القلقشندى أن منسى موسى لم يعد إلى بلده من رحلة الحج هذه: «حتى احتاج إلى القرض فاستدان على ذمته من تجار مصر بما لهم عليه فيه المكاسب الكثيرة بحيث يحصل لأحدهم في كل ثلاثمائة دينار سبعمائة دينار ربحا وبعث إليهم بذلك بعد توجهه إلى بلاده»[152].

ولقد ذاعت شهرة مالي بسبب هذا الحج وتجاوزت حدود العالم الاسلامي حتى صار رسامو الخرائط في أوربا يرسمون منسى موسى في وسط الصحراء. يقول الدكتور زاهر: ان «أطلس كاتلان المشهور الذي رسم أيام شارل الخامس بواسطة ابراهيم كرسكس في سنة 1375 م أظهر في وسط الصحراء رجلا ملثما .. متجها إلى ملك جالس على عرش لابسا ملابس ملكية وتاجا ممسكا بالصولجان في احدى يديه والصاجات في اليد الأخرى وهو يناولها إلى الراكب وقد كتب تحت هذا الملك الزنجي: منسى موسى ملك الزنوج في غانة والذهب كثير في مملكته إلى حد أن أصبح أغنى وأنبل ملك في العالم»[153]. وقد ظل هؤلاء الرسامون على ذلك إلى القرن السادس عشر الميلادي.[154]

ولقد ترك هذا الحج أعمق الأثر في نشر الاسلام وتوطيد أركان المذهب المالكي في مملكة مالي وفي نيجيريا. فإلى جانب ما تقدم من مرور الموكب بشمال نيجيريا والذي كان اقليما من أقاليم هذه الامبراطورية «فقد أدى هذا الحج إلى مضاعفة عدد المهاجرين إلى السودان الغربي من العلماء والتجار، وازدهرت التجارة بسببه ازدهارا لم يسبق له مثيل».[155] وكذلك أدى إلى تعزيز العلاقات بين مصر والسودان الغربي حتى صار السودان الغربي يزدحم بالمهاجرين وبالتجار القادمين من كافة أرجاء المعمور «وقدم مع التجار المتعلمون ورجال الدين من بلاد كثيرة يجتمعون حول مشهوري علماء جدالة في جامع سنكور»[156] وكان من نتائج تمتين العلاقات المصرية السودانية أن ساهمت مصر مساهمة فعالة في

---

(152) صبح الأعشى ج 5 ص 296.

(153) الممالك الاسلامية في غرب أفريقيا ــ للدكتور زاهر ــ ص 121.

(154) راجع تاريخ كشف أفريقيا ــ للدكتور شوقي الجمل ــ ص 67.

(155) العالم القديم ــ لبووا ــ ج 1 ص 188.

(156) الممالك الاسلامية للدكتور زاهر ص 120.

توطيد أركان الفقه المالكي في مملكة مالي وفي نيجيريا، ذلك أن رعايا هذه الامبراطورية المترامية الأطراف لما كانوا متشبثين بمذهبهم المالكي الذي رسم قواعده فيهم اخوانهم المرابطون، وفي مصر تعدد المذاهب كما أسلفنا[157] فقد خصصوا لأنفسهم رواقا للمذهب المالكي «وبنوا مدرسة للمالكية بالفسطاط ينزل بها وفودهم»[158] مما مكن مصر من المشاركة المباشرة في ترسيخ قواعد الفقه المالكي في السودان الغربي.

ومنسى موسى الذي كان له مثل هذا الدور العظيم في ربط العلاقات بين مصر والسودان الغربي، كان من الطبيعي أن يقوى العلاقات السودانية المغربية ويمتنها تمتينا ما بعده تمتين حتى أن رعايا امبراطوريته بما فيهم النيجيريون تشبثوا بطريقة المغاربة في كل شيء من الخط وطريقة الكتابة واللباس والمركب والبناء[159] والأسلحة[160] والقراءة[161] برواية ورش عن نافع بن أبي نعيم وغير ذلك. ولم يكتف منسى موسى بجلب الفقهاء بل جلب حتى المهندسين أشهرهم أبو اسحاق الساحلي الذي بنى له أروع مسجد وأروع قصر[162]. يقول الدكتور زاهر: «وضمت حاشية منسى موسى شاعرا أندلسيا اتصل به في مكة وظل يتابعه حتى دخل خدمته ويسمى بالساحلي وكان الى جانب كونه شاعرا مهندسا فكان أول عمل أوكله إليه سيده الجديد أن يستبدل بالبناء القديم للمسجد بناء جديدا أليق بعبادة الله وبنى المسجد الجديد الذي ظل قائما ثلاثمائة سنة والذي مازال أساسه قائما ــ من الأجر الأمر الذي لم يكن معروفا حتى هذا الوقت في السودان»[163].

وهكذا نرى أن فريضة الحج التي قام منسى موسى بأدائها كان لها أبلغ الأثر في السودان الغربي في ميادين متعددة. وقد ظل المسجد الذي بناه الساحلي

---

(157) راجع ص 126 من الجزأ الأول من رسالة هذا الباحث.

(158) صبح الأعشى ج 5 ص 281.

(159) نفس المصدر 5/298-299.

(160) الامام المغيلي وآثاره ... في نيجيريا ــ للشيخ آدم ــ ص 8.

(161) مجلة الوعي الاسلامي، السنة 5 العدد 59 ذي القعدة 1398 هـ ــ ديسمبر 1969 ص 66.

(162) العالم القديم ــ لبووا ــ ج 1 ص 188، نيجيريا وجيرانها ــ لفاجانا ــ ج 2 ص 81.

(163) الممالك الاسلامية في غرب أفريقيا ــ للدكتور زاهر ــ ص 118-119.

مركز الحياة الدينية لقرون بعد وفاة منسى موسى[164]. وكان منسى موسى جوادا كعادته مع مهندسه العظيم فقد «أعطى لأبي اسحاق الساحلي في يوم واحد أربعة آلاف مثقال»[165] كما سمع ابن بطوطة في رحلته إلى مملكة مالي. بل يذكر الأستاذ فاجانا أن رحلة ابن بطوطة نفسها إلى السودان الغربي أثر من آثار الحج المذكور وأن السلطان المغربي بعد أن سمع عن كل ما قام به منسى موسى في رحلة حجه هذه بعث ابن بطوطة إلى السودان الغربي ليأتيه بالتقارير الوافية عن هذه المملكة. فغادر المغرب سنة 1352 م وعندما وصل إلى مالي كان منسى موسى قد توفى ومع ذلك دون ابن بطوطة أهم مشاهداته وسماعاته ورجع بها الى السلطان المغربي[166].

من مجموع ما تقدم يتبين لنا أن منسى موسى قام بأعظم الأدوار في نشر الاسلام والمذهب المالكي في السودان الغربي عامة وفي نيجيريا على وجه التخصيص. ولم يتوقف دور مملكة مالي في هذا الميدان بوفاة منسى موسى فقد تابع خلفاؤه نفس المنهج الذي رسمه في سبيل تدعيم الفقه المالكي في هذه المملكة. يقول القلقشندى: «فملك بعده ابنه منسى مغا ... ومات لأربع سنين من ولايته. وملك بعده أخوه منسى سليمان بن أبي بكر وهو أخو منسى موسى المقدم ذكره. قال في مسالك الأبصار: واجتمع له ما كان أخوه افتتحه من بلاد السودان وأضافه إلى بلاد الاسلام وبنى به المساجد والجوامع والمنارات وأقام به الجمع والجماعات والأذان وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الامام مالك رضي الله عنه وتفقه في الدين»[167] وهكذا استمر السلاطين في الاهتمام بنشر العلم وجلب حفاظ المذهب المالكي إلى البلاد حتى عمقوا جذورهم هذا المذهب في شمال نيجيريا وما والاه.

من مجموع ما تقدم يتبين لنا أن مملكة مالي تركت أعمق الأثر في نشر المذهب المالكي في نيجيريا. فكل ما ذكرناه من تشجيع العلم وبناء المدارس

---

(164) نيجيريا وجيرانها ـــ لفاجانا ـــ ج 2 ص 81.
(165) رحلة ابن بطوطة ص 672.
(166) نيجيريا وجيرانها ـــ لفاجانا ـــ ج 2 ص 82.
(167) صبح الأعشى ج 5 ص 296-297.

والمساجد وجلب فقهاء المذهب إلى البلاد والاهتمام البالغ بصلاة الجماعة واستتباب الأمن وتمتين العلاقات السودانية المغربية وغير ذلك، لاشك أنه ساهم مساهمة فعالة في تعميق جذور المذهب المالكي في السودان الغربي بصفة عامة وفي نيجيريا على وجه التخصيص إلى جانب ما ذكرناه من امتداد هذا المذهب في عهد منسى موسى ليشمل بلاد يوربا في غرب نيجيريا. هذا بالاضافة إلى أن العديد من الدعاة الماليين هاجروا إلى كانو وكاشنة للاقامة الدائمة كما سنرى عند الحديث عن دور الهجرة في نشر المذهب المالكي في نيجيريا،[168] وقد ترك هؤلاء الدعاة والمهاجرون الماليون هناك أطيب الآثار حتى إن العديد من المجتمعات الاسلامية في شمال نيجيريا تعزى اسلامها إلى الدعاة الماليين».[169]

ولما انضم كل ذلك إلى تلك الآثار الطيبة التي خلفها التجار والمرابطون ومملكة غانة كما رأينا في المواضيع السابقة، بدأ المسلمون في نيجيريا يشعرون بالقوة. ومن مظاهر ذلك ما ذكره الدكتور موسى عبدول عن **سلطان علي ياجي سلطان امارة كانو** من عام 1349 م إلى عام 1385 م الذي لم يكتف باعتناق الاسلام بل اشترك في الدعوة الاسلامية ثم انه أراد أن يستعجل في الأمر بما له من السلطة «فأمر جميع من في المدن والقرى التابعة لامارة كانو أن يقيموا الصلاة ففعلوا ذلك، ولكن عارضه في ذلك سلطان غَرَازَاوَا الوثني وانتهى الخلاف بينهما إلى صدام مسلح بين المسلمين والوثنيين»[170]. وقد ترك هذا السلطان أعظم الأثر في نشر الاسلام والمذهب المالكي في نيجيريا حتى إن بعض المؤرخين يعتبرون عهده بداية انتشار الاسلام في نيجيريا. فقد نسب توماس أرنولد إلى بالْمَرْ قوله: إن دخول الاسلام إلى كانو كان ما بين سنتي 1349-1385.[171] وواضح من التاريخ المذكور أن هذا الكلام إنما يشير إلى هذه الحادثة التي ذكرناها. ولاشك أن هذه الحادثة لاتمثل تاريخ دخول الاسلام إلى نيجيريا بل تمثل بداية شعور المسلمين بالقوة والثقة بالنفس أو بداية اعتناق النيجيريين للاسلام بصفة جماعية. يقول محمد جلال عباس: «إن بعض الهوسا قد اعتنقوا الاسلام

(168) راجع ص 225 ـــ 227 من هذه المجلة.

(169) أصل الاسلام التاريخي ـــ للدكتور موسى عبدول ـــ ج 5 ص 111.

(170) نفس المصدر ج 5 ص 119.

(171) الدعوة إلى الاسلام ـــ لتوماس أرنولد ـــ ص 356 تعليقا.

ولكن بأعداد قليلة نتيجة للاختلاط بالمسلمين ولكنهم أقبلوا على الاسلام بعد أن اعتنقه ملكهم ياجي وأخذ يبني المساجد ويحكم البلاد وينظم العلاقات والمعاملات على أساس النظم الاسلامية فلما شاهد الهوسا حسنات الاسلام أقبلوا عليه بل تحولوا بعد ذلك بقليل إلى دعاة لهذا الدين بين القبائل البدائية التي كانت تسكن إلى جنوب كانو».(172)

ومعنى هذا أن هذه الحادثة تمثل بداية الحكم الاسلامي في نيجيريا ولا تمثل تاريخ دخول الاسلام إلى نيجيريا أبدا. ولهذا لم يوافق توماس أرنولد على قول بالمر هذا بل ذكر أن تاريخ دخول الاسلام إلى نيجيريا غير محقق(173). ويقول الاستاذ فاجانا: «إن الاسلام دخل الى شمال نيجيريا في سنة 1000 م».(174) ويقول الشيخ شاغرى ان الاسلام «بدأ ينتشر مع القرن الحادي عشر الميلادي بفعل التجار والمعلمين المهاجرين من الأجزاء الأخرى من غرب أفريقيا وشمالها».(175) ويقول الشيخ آدم «وعلى أيدي الونغاريين الغانويين انتشر الاسلام إلى بلاد كاشنة وكانو بالقرن الخامس الهجري وذلك بعد سقوط دولتهم وانتشارهم في مختلف الانحاء والأرجاء».(176). ويقول كذلك: وقد كتب المؤرخون أن أهل مدينة كانو قد عرفوا الاسلام على أيدي الوناغرة الذين وفدوا إليها من كاشنة وعرف الوناغرة الاسلام على أيدي العرب والبرابرة. وذكر أحمد بابا التمبكتي أن بلاد برنو وكاشنة وزكزك قد أسلم أهلها منذ القرن الخامس الهجري طوعا من غير استيلاء أحد عليها. والواضح أنها صارت بلادا اسلامية في القرن الخامس بعد أن كان الاسلام ينتشر بالتدريج قبل ذلك بزمن إذ لم يكن هناك فتح أو استيلاء لأحد عليهم. وعلمنا بذلك أن وقت انتشاره وذيوعه غير وقت دخوله واعتناقه».(177)

---

(172) مجلة الأزهر المجلد 33 جمادى الآخرة 1381 هـ نوفمبر 1961 ص 693.

(173) الدعوة إلى الاسلام ــ لتوماس أرنولد ــ ص 356.

(174) نيجيريا وجيرانها ــ لفاجانا ــ ج 1 ص 31-32.

(175) عثمان دان فوديو ــ للشيخ شاغرى ــ ص 2 (باللغة الأجنبية والترجمة لصاحب البحث).

(176) الاسلام في نيجيريا ــ للشيخ آدم ــ ص 21.

(177) نفس المصدر ص 32.

فالواضح من هذه الأقوال أن دخول الاسلام إلى المناطق التي عرفت فيما بعد باسم نيجيريا يعود إلى ما قبل دخول المرابطين إليها ثم اشتد أمره واستفحل بدخولهم إلا أن نيجيريا لم تكن في مركز عملياتهم فتولت الممالك السودانية اتمام عمل هؤلاء المرابطين إلى أن أسلم سلطان علي ياجي فأراد اجبار من تبقى من الوثنيين على الاسلام فأصدر أمرا في هذا الشأن إلى جميع رعاياه فأدى ذلك إلى صدام مسلح مع سلطان آخر وثنى. ومن هنا تظهر غرابة قول بالمر المتقدم والذي يذهب فيه إلى أن دخول الاسلام في كانو كان بين سنتي 1349 و 1385، إلا أن يفهم كلامه هذا على ما ذكرنا من أنه إنما يشير بذلك إلى مافعله الملك ياجي سلطان كانو ما بين سنتي 1349 و 1385 من محاولة اجبار الجميع على إقامة الصلاة مضافة إلى قيامه بتطبيق الحكم الاسلامي على جميع رعاياه مما أدى إلى دخول الناس في الاسلام بصفة جماعية.

فلا شك أن قول بالمر المتقدم غريب للغاية على ضوء الوقائع التاريخية التي أثبتناها، إلا أن هناك قولا أخر أغرب منه، ألا وهو ما ورد في دائرة المعارف الاسلامية في تعريف مادة الحوصة / أي الهوسا / وذلك في قوله: «والاسلام دين الحوصة اليوم دخل ربوعهم في **القرن الخامس عشر** وأحرز تقدما كبيرا في القرن التاسع عشر من جراء غزو الفلبة لهذه البلاد ويرجع إليهم الفضل في **اكراه السكان المغلوبين على اعتناقه**».(178)

هذا الكلام غريب جدا في مضمونه وسمج في نفس الوقت في أسلوبه في الاشارة إلى الجهاد الاسلامي الكبير الذي أقام في نيجيريا دولة مالكية مرابطية ذات عز وفخار ونحن لانجاريه في ذلك هنا وإنما نكتفي بالاشارة إلى أنه كلام مخالف للواقع ولأقوال العلماء كما رأينا. بل أكثر من ذلك نغتنم هذه المناسبة للتذكير بأن تأثر امارات الهوسا السبع بالاسلام والمذهب المالكي كان بنسب متفاوته إذ سبق أن ذكرنا أن هذه الامارات كانت بمثابة سبع دول مستقلة لاتجمعها إلا علاقات الحرب في أكثر الأحيان ولم يعمها الاسلام وينتشر فيها

---

(178) دائرة المعارف الاسلامية المجلد 8 ص 145 (ترجمة محمد ثابت وزملاؤه ط. الاشبيلى).

المذهب المالكي بصفة نهائية وشاملة إلا بقيام الدولة الاسلامية الكبرى التي قامت على يد المجاهد الكبير الشيخ عثمان بن فودى ولذلك فإن اختلاف الأقوال في موضوع دخول الاسلام في هذه المناطق يرجع في أغلب الأحيان إلى اختلاف الامارات المنظور إليها. وأخيرا فإنه مهما يكن من أمر فإن الذي لاشك فيه من مجموع ما تقدم هو أن مملكة مالي تركت خلفها أعمق الأثر وأطيبها في ميدان نشر المذهب المالكي في نيجيريا.

المبحث الخامس

دور مملكة سنغاي

مملكة سنغاي هي ثالثة الممالك الكبرى التي قامت في غرب أفريقيا ولعبت دورا هاما في نشر الاسلام والمذهب المالكي في نيجيريا. ويخيم الغموض على أصل هذه المملكة شأنها في ذلك شأن غيرها من الممالك السودانية. ولذلك اختلفت في شأنها أقوال المؤرخين فقال بعضهم: «إن أصل الذين أسسوا هذه المملكة من مصر وأنهم كانوا استقروا أولا في منطقة داندي قرب بِرِنِنْ كَبْبِي حتى أسلم الملك الخامس عشر من ملوكها واسمه زاكس فنقل العاصمة من غَرْجِيَا إلى جاو في حدود سنة 1009 م»[179]. وجاء في تاريخ السودان لمؤلفه عبد الرحمان السعدي: «انهم من اليمن نزحوا إلى السودان من زمن فرعون موسى وكانوا أربعة عشر ملكا في الجاهلية تبدأ أسماؤهم بزا».[180] ويقول الأستاذ فاجانا: إن «هذه المملكة كان يحكمها ملوك يحملون لقب زا وذلك من سنة 700 م إلى أن صارت مملكة اسلامية سنة 1009 م»[181] وقال توماس أرنولد: «وأما عن دخول الاسلام في مملكة سنغاي القديمة التي يقال أنها وجدت في عهد مبكر يرجع إلى سنة 700 م فلم يذكر لنا التاريخ إلا أن أول ملك مسلم كان يسمى زاكسي وكان الملك الخامس عشر من أسرة زا وقد أسلم في سنة 400 هـ (1009-1010 م)»[182] وقريب من ذلك قول الأستاذ بووا: «وظل الغموض يخيم على تاريخ هذه المملكة حتى اتصل بها التجار المسلمون في القرن الحادي عشر

---

(179) أصل الاسلام التاريخي ـــ للدكتور موسى عبدول ـــ ج 5 ص 111.

(180) الاسلام في نيجيريا ـــ للشيخ آدم ـــ ص 25.

(181) نيجيريا وجيرانها ـــ لفاجانا ـــ ج 2 ص 86.

(182) الدعوة إلى الاسلام ـــ لتوماس أرنولد ـــ ص 355.

فصار تاريخها معروفا بسبب سجلات هؤلاء التجار. وفي سنة 1009 م أسلم الملك زاكس واتبعه في ذلك معظم رعاياه».[183]

وإلى جانب سجلات التجار المشار إليها يقوم الباحثون بنشاطات أخرى قصد القاء مزيد من الأضواء على تاريخ هذه المملكة. يقول باذل دافدسن: «وقد عثر الباحثون في جاو على كتابات محفورة من أروع ما وجد المؤرخون وأطرف إذ عثروا في سنة 1939 في سانى على بعد أربعة أميال من جاو الحديثة، على كتابات محفورة في شواهد قبول الملوك يرجع تاريخها إلى الشطر الأول من القرن الثاني عشر. يقول شاهد من هذه الشواهد باللغة العربية الفصيحة: هذا قبر الملك الذي أيد دين الله وأعزه، أبو عبد الله محمد رحمه الله. ويضيف أن الملك توفي عام 494 للهجرة (سنة 1100م)»[184].

ولقد ظلت سنغاي مملكة صغيرة ردحا من الزمن فأدرجتها غانة في مملكتها.[185] ولما قامت امبراطورية مالي صارت سنغاي جزءا من أجزائها إلا أن سنغاي بلغت حينئذ من القوة ما جعلتها تقوم بمحاولات للاستقلال عن مالي ولذلك عندما كان منسى موسى راجعا من حجه العظيم الذي سبق أن تحدثنا عنه[186] «مر بجاو عاصمة سنغاي وأخذ معه ابنى زَايَسِيْهُو ملك سنغـاي كرهائن ليضمن بهما ولاء مملكة سنغاي».[187] ولكن بعد فترة من وفاة منسى موسى «تمكن الأميران من الهرب فرجعا إلى بلادهما حيث استقبلا استقبالا حماسيا ... ثم توج أكبر الأخوين ــ واسمه علي كُوْلُونْ ــ ملكا على سنغاي»[188] لتبدأ الحروب مع مالي والتي ستنتهي بانشاء امبراطورية سنغاي.

وكان دور علي كولون في ذلك عظيما. فلمدة 36 سنة حارب لتحرير بلاده وتوسيع حدودها حتى أنه في الأخير «ترك لقب زا التقليدي واتخذ لقب

(183) العالم القديم ــ لبووا ــ ج 1 ص 191.

(184) أفريقيا تحت أضواء جديدة ص 156.

(185) انظر إلى الخريطة

(186) راجع ص 187-190 من

(187) العالم القديم لبووا ج 1 ص 191-192.

(188) نيجيريا وجيرانها لفاجانا ج 2 ص 86.

سنى الذي يعنى المحرر».[189]. فصار يعرف باسم سنى على وخلفه على عرش سنغاي العديد من الملوك يحملون هذا اللقب إلى أن جاء أعظمهم على الاطلاق «وهو على بارى المشهور باسم سنى على الثاني الذي امتدت فترة حكمه من سنة 1466 م إلى سنة 1492 م»[190] «فأدرج مملكة مالي في امبراطورية سنغاي».[191]

والجدير بالذكر هنا أن أم سنى على الثاني المذكور كانت من قبيلة الهوسا النيجيرية إلا أنها كانت لاتزال على وثنيتها، وربما كان ذلك من أسباب يذكره المؤرخون من فسق علي الثاني هذا وعدم احترامه للعلماء. يقول الأستاذ فاجانا: «وأمه وثنية من الهوسا وهو نفسه لم يكن قد ترك جميع الممارسات الوثنية».[192] ويقول الشيخ آدم «إنه فاسق عنيد مستبد كثيرا ما يخالف تعاليم الاسلام».[193] ويقول الدكتور عبدول: إنه إلى جانب كل ذلك لم يكن يحب العلماء والفقهاء «بل كان يرى أنهم يشكلون دولة في داخل الدولة إذ كانوا ينتقدون ممارسات الحاكم».[194] فكان العلماء والفقهاء معه في محنة عظيمة حتى كان ذلك من أسباب فوات الملك منه ومن أعقابه. يقول الشيخ آدم: «ولما أنكر عليه علماء تمبكتو وجنى وشقوا عصا طاعته حاربهم لمدة خمسة عشر عاما وخرب فيها تمبكتو وجنى وقتل علماءها ونهب أموالهم وباع أبناءهم فكان ذلك سببا من أسباب فوات الملك من أيدي أعقابه إلى أسكيا محمد بن أبي بكر التوري وأحفاده».[195]

وقد انتهى معظم العلماء والفقهاء وحفاظ المذهب المالكي الذين فروا من اضطهاده إلى مدينة كانو وكاشنة في شمال نيجيريا ليكونوا هناك **تمبكتو أخرى** كما سنرى عند الحديث عن دور الهجرة في نشر المذهب المالكي في نيجيريا[196]

---

(189) العالم القديم لبووا ج 1 ص 192.

(190) نفس المصدر ج 1 ص 191-192.

(191) نيجيريا وجيرانها لفاجانا 86/2.

(192) نفس المصدر ج 2 ص 87.

(193) الاسلام في نيجيريا لآدم ص 25.

(194) أصل الاسلام التاريخي لعبدول 112/5.

(195) الاسلام في نيجيريا — للشيخ آدم — ص 25.

(196) راجع ص 232 — 233 من هذه المجلة.

فكان سنى على بهذا الاعتبار ممن عملوا بغير القصد على تعميق جذور المذهب المالكي في نيجيريا. أما خلفه أسكيا محمد فكان دوره في ذلك أعظم وأثره أعمق لأنه قصد إلى ذلك قصدا وبذل كل ما في وسعه في سبيل تحقيقه.

وأسكيا محمد الذي آل إليه حكم سنغاي وقام بهذا العمل الجليل كان اسمه محمد ابن أبي بكر التوري. وفي هذا الاسم ما يوحى بأن أسرته قديمة جدا في المالكية إذ كان لفظ التورى هو اللفظ الذي يطلق على المالكي تمييزا له عن أتباع المذاهب الأخرى من أيام أن كانت في السودان الغربي مذاهب شتى كما تقدم[197] إلى أن جاء المرابطون واستأصلوا شأفة المذاهب من السودان الغربي حتى لم يبق أحد من السودانيين يتمذهب بغير المذهب المالكي و لم يبق للمذاهب الأخرى في السودان الغربي وجود إلا ما كان من المهاجرين كالذين شاهدهم ابن بطوطة في رحلته إلى هذه المناطق. يقول ابن بطوطة: «وبعد مسيرة عشرة أيام من أيوالاتن وصلنا إلى قرية زاغرى وهي قرية كبيرة يسكنها تجار السودان ويسمون ونجراته ويسكن معهم جماعة من البيضان[198] ويذهبون مـذهب الاباضية من الخوارج ويسمون ضغنغو والسنيون **المالكيون** من البيض **يسمون عندهم تورى**».[199]

وكان محمد بن أبي بكر التورى المذكور وزيرا لسنى على المتقدم ذكره واستمر على ذلك لمدة ثلاثين سنة، واشتهر بالصلاح والتقوى وهو الذي كان يمنع سنى على من تصرفاته السيئة ويصلح سيئاته عند الرعية، فلما توفى سنى على أجمع العلماء على أن يتولى هذا الرجل التقى الورع الذي جمع إلى الصلاح والتقوى الدراية التامة بأحوال البلاد ومشاكلها وحلول هذه المشاكل، ولكن أسرة سنى على لم ترض بذلك فقاموا بمناوءته إلا أنهم «لم يجدوا لأنفسهم من الناس أنصارا فذهبت ريحهم».[200] ولما كان محمد بن أبي بكر المذكور راجعا

(197) راجع ص 174 من هذه المجلة.

(198) [illegible] من الناس ضد السودان.

(199) رحلة ابن بطوطة ص 664.

(200) الاسلام في نيجيريا — للشيخ آدم — ص 26.

من المعركة التي تم فيها القضاء على أسرة سنى على وقتل الأميرين الذين خلفهما «صاحت أخوات الأميرين بلغة سنغاي: أسكيا! أسكيا! ومعناه: لا، إنه ليس بملك! لا، إنه ليس بملك! فلما بلغ ذلك إلى مسامع محمد بن أبي بكر هذا ابتسم وقال: ماأكرم هذا الاسلام فإنني كامبراطور لاأريد أن أعرف إلا بهذا الاسم».[201] ومن ذلك اليوم صار يعرف باسم أسكيا محمد.

وأعمال أسكيا محمد في السودان الغربي من تشجيع العلم ومحبة العلماء واستقدام فقهاء المذهب المالكي إلى البلاد والحج في أبهة الملك والاهتمام بتوسيع رقعة البلاد وغير ذلك، شبيهة إلى حد بعيد بأعمال منسى موسى المتقدمة[202]. فعن تشجيع العلم يقول الأستاذ فاجانا: «على عكس سلفه كان أسكيا يحب العلماء كثيرا وفي عهده حضر إلى تمبكتو وجنى مزيد من العلماء منهم من جاء للتعلـم ومنهـم مـن جـاء للتعليـم»[203]. ويقـول الأستـاذ بـووا : «ومـع أن أسـكيـا لم يكن عالما إلا أنه لم يأل جهدا في تشجيع العلم في بلاده .. ففتح المدارس ومراكز التعليم في كافة أرجاء امبراطوريته المترامية الأطراف ... جلب مزيدا من العلماء إلى جامعات تمبكتو وجنى وجاو ... حتى كان القضاة والفقهاء وأئمة المساجد وخطباؤها يتقاضون رواتبهم من الملك ... فاشتد الطلب على الكتب حتى أن تجارة الكتب وحدها كانت تحقق أرباحا طائلة ... وكان أسكيا محمد إلى جانب ذلك بارعا في تسيير أمور امبراطوريته .. ويعتقد أنه أول حاكم في التاريخ قام بتعيين وزير خاص مكلف بشؤون الغابات والصيد»[204]. ويقول الدكتور زاهر: «وكان الحاكم الجديد يتحلى بصفات طيبة جعلته جديرا بالمركز الذي اغتصبه إذ كان ذا كفاءة في التنظيم السياسي تفوق كفاءة سنى على، ميالا إلى الدين والعلم ... وشهد حكمه انتعاشا اسلاميا كما شهد العلماء حالة لم يتمتعوا بها من قبل ... على حين كانوا أكثر الناس اضطهادا في الجماعة ولكنهم أصبحوا الآن أكثر الناس مراعاة وسار مع انتعاش العلم كما هي العادة في السودان انتعاش في التجارة الخارجية التي أضافت ثروة جديدة إلى جاو وتمبكتو».[205]

(201) العالم القديم ــ لبووا ــ ج 1 ص 195-196.

(202) راجع ص 190 ــ 200 من هذه المجلة.

(203) نيجيريا وجيرانها ــ لفاجانا ــ ج 2 ص 88.

(204) العالم القديم ــ لبووا ــ ج 1 ص 195-196.

(205) الممالك الاسلامية في غرب أفريقيا ــ للدكتور زاهر رياض ــ ص 137.

ولما كان أسكيا محمد إلى جانب محبته للعلم والعلماء، شديد التقوى والتدين فقد سارع إثر ارتقائه العرش، إلى أداء فريضة الحج في أبهة قريبة من أبهة منسى موسى المتقدم. يقول الشيخ آدم: «حج أسكيا محمد في أبهة الملك التي لاتقل روعة وجلالا عن أبهة منسى موسى السابق».[206] وقال دنيز بولم «وقد حج إلى مكة المكرمة سنة 1495 محاطا بحماية قوية أنيقة فأنفق ثلاث مائة ألف قطعة ذهبية في بذل الصدقات وبناء المؤسسات التقوية في المدينة المنورة».[207] وقال الدكتور زاهر: «وأسرع أسكيا بعد ارتقائه العرش إلى الحج وضمت قافلته خمسمائة فارس وألف راجل وحمل معه ثلاثمائة قطعة من الذهب من الكنوز التي تركها سنى علي ومن هذا المبلغ خصص ثلثه للمنشآت الخيرية في الأماكن المقدسة».[208]

وبعد رجوعه من الحج مليئا بالحماسة الدينية اجتهد في نشر الاسلام وتوطيد أركان المذهب المالكي كما اجتهد في توسيع امبراطوريته فكان من ذلك أن امتدت هذه الامبراطورية حتى شملت معظم أراضي نيجيريا.[209] يقول الشيخ آدم: «وامتدت هذه الدولة حتى شملت مالي وغينيا والداهومي ونيجيريا الحاضرة وكانت عاصمتها جاو».[210] ويقول الدكتور زاهر: «واتجه أسكيا بعد ذلك إلى محاولة مد حدود دولته وهي التي ضمت الرقعة الكبيرة التي حكمها سنى علي. فكانت حملاته الأولى موجهة باسم الاسلام إلى البلاد الوثنية التي تحيط به من الغرب والجنوب وكان هذا الاتجاه طبيعيا من رجل عاد توا من رحلة الحج. فاستولى من ناحية الغرب على جزء كبير من دولة مالي التي أصبحت عظمتها ليست أكثر من ذكرى باهتة وكاد أن يصل إلى المحيط. ولكن أهم حملات أسكيا حدثت بعد ذلك بعد سنين حين غزا اقليم الهوسا الذي يقع وراء حدوده الشرقية وكانت إمارات الهوسا قد امتدت شرقا من النيجر نحو بحيرة تشاد. وكانت خصبة جيدة الري وهي موطن زنوج ينتمون إلى أصول مختلفة وكانوا

(206) الاسلام في نيجيريا — للشيخ آدم — ص 29.

(207) الحضارات الأفريقية — لدنيز بولم — ص 73.

(208) الممالك الاسلامية في غرب أفريقيا — للدكتور زاهر — ص 137.

(209) انظر إلى خريطة سنغاي على ص 212

(210) الاسلام في نيجيريا — للشيخ ادم — ص 29.

ولا يزالون يتميزون بصفات عظيمة فهم زراع نشطون وتجار مهرة كما اشتهروا بالعبقرية الصناعية ... ومن مدنهم جوبر وكانو وزاريا وكاتسينا وكانت أهميتها كافية لأن تجذب تجار البربر ليستقروا فيها ولكنها كانت محرومة من وسائل الدفاع الطبيعية وكان حبهم للسلام قويا ... ولذا سقطت بلادهم فريسة سهلة لقوة سنغاي الغازية التي لم تجد مقاومة جدية إلا في كانو، وبفتح امارات الهوسا أضاف أسكيا إلى دولته الواسعة جزءا غنيا مزدحما بالسكان»[211].

وهكذا استطاع أسكيا «أن يجعل من غرب أفريقيا كله تقريبا وحدة سياسية تحت سلطة حاكم واحد».[212] ولكن أسكيا محمد لم يكن يسعى ليجعل غرب أفريقيا وحدة سياسية فحسب بل كان لايرضى إلا بأن يجعل منه دولة اسلامية موحدة تحت راية مذهب إمام دار الهجرة. لذلك فما أن تم له فتح هذه البلاد حتى استقدم الامام المغيلي إلى بلاده وكلفه بأن يدون له مواصفات تلك الدولة الاسلامية. وهو عمل شاءت ارادة الله أن تجعل منه انطلاقة الأنشطة التي ستنتهي إلى إقامة دولة المذهب المالكي في نيجيريا يقول الدكتور عبدول: «ولم تمض على رجوعه من مكة إلا فترة زمنية قصيرة حتى استدعى أسكيا محمد الامام المغيلي إلى بلاطه وكلفه بأن يدون له وسائل الحكم على مقتضى الشريعة الاسلامية. ووزعت نسخ ذلك الكتاب إلى جميع أرجاء مملكة سنغاي بما فيها بلاد الهوسا حيث عكف الطلبة على دراسته. ومن هنا أثرت أفكار المغيلي على الشيخ عثمان دان فوديو الذي سيؤسس فيما بعد حكومة اسلامية تشمل جميع امارات الهوسا»[213].

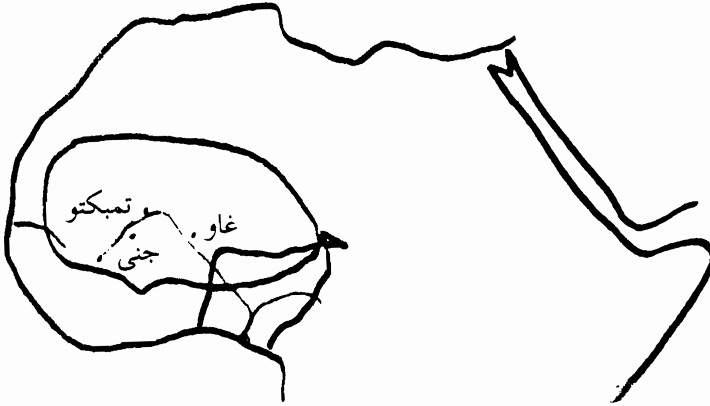
وهذا الموضوع لايمكننا أن نبالغ في تقدير أهميته بالنسبة لنشر الاسلام والمذهب المالكي في نيجيريا. فإن الامام المغيلي لم يلبث في جاو عاصمة سنغاي إلا مدة قصيرة بعد أداء مهمته المذكورة حتى انتقل إلى كانو وكاشنة في نيجريا وأقام هناك يدرس الفقه المالكي إلى أن تولى القضاء في نيجيريا فتمكن من التأثير على أهلها تأثيرا لايصح أن يقارن إلا بتأثير الشيخ عثمان بن فودى على أهل هذه

(211) الممالك الاسلامية في غرب أفريقيا — للدكتور زاهر — ص 138-139.

(212) تاريخ كشف أفريقيا — للدكتور شوقي الجمل — ص 67.

(213) أصل الاسلام للدكتور عبدول 112/5، الامام المغيلي وآثاره ... للشيخ آدم ص 31-32.

خريطــة مملكــة سنغـاي



ملاحظـة : هكذا رسمها الأستاذ يووا في كتابه العالم القديم ج 1 ص 197، والأستاذ فاجانا في كتابه نيجيريا وجيرانها ج 2 ص 87



مملكة سنغاي في عهد ملوكها الأوائل
مملكة سنغاي في عهد منى على
مملكة سنغاي في عهد أسكا محمد

ملاحظـة : هكذا رسمها الدكتور موسى عبدول في كتابه أصل الاسلام التاريخي ج 5 ص 13

البلاد كما سنوضح في موضعه.[214] ولذلك فإن الدور الذي لعبته مملكة سنغاي في نشر المذهب المالكي في نيجيريا هو دور عظيم. على أن دورها في ذلك لاينتهي بما ذكر ولا يقتصر على استفادة نيجيريا من الموقف السلبي الذي وقفه سني على من الفقهاء وحفاظ المذهب المالكي حين اضطرهم للهجرة من تمبكتو وجنى إلى كانو وكاشنة، بل يتعدى كل ذلك. فقد استفاد الفقه المالكي في نيجيريا مثل هذه الاستفادة وبشكل ضخم للغاية وذلك عندما سقطت مملكة سنغاي في أيدي السعديين المغاربة، حتى إن كانو وكاشنة وغيرهما من المدن النيجيرية حلت محل جنى وتمبكتو وغيرهما من مراكز الفقه المالكي في غرب أفريقيا واستمر الحال هكذا إلى اليوم. ولكن قبل توضيح ذلك لابأس من الاشارة إلى السبب الذي أدى إلى قيام المغرب بالقضاء على مملكة سنغاي وذلك لكثرة الشبهات في هذا الموضوع.

فقد ظن كثير من الكتاب الأوربيين وأذنابهم من الكتاب النيجيريين أن سبب ذلك يرجع إلى طمع المغرب في ذهب السودان. يقول دنيز بولم — وهو مثال لما يقوله غيره من الكتاب وان اختلفت عباراتهم — : «وفي القرن السادس عشر نشب خلاف بين امبراطور جاو وسلطان المغرب السعدي حول مناجم الملح في الصحراء وهو على الأقل ما تذرع به السلطان المغربي الحاسد على ثروات السودان فأرسل فرقة من المرتدين الاسبان مجهزين بالبنادق فكان أن سحق الملك السوداني ونهبت بلاده».[215]

ويبدود أن الذي أوقعهم في هذا الوهم: ما شاهدوا من فظاعة الحرب التي دارت بين السودانيين المسحلين بأسلحة بدائية والمغاربة المزودين بأسلحة متطورة مع كثرة ما فاض على السلطان المغربي من ذهب من جراء ذلك حتى لقب السلطان المغربي مولاي أحمد المنصور السعدي بالمنصور الذهبي. فقد تحدث الناصري مثلا عن اتخاذ السلطان المغربي قرار الغزو فقال: «استقر رأى الحاشية على ذلك فبقى المنصور يقدم رجلا ويؤخر أخرى إلى أن كانت سنة سبع وتسعين وتسعمائة فقوى عزمه واشتغل بتجهيز آلة الحرب ...»[216]

(214) راجع ص 264 — 270 من رسالة الباحث المرقونة ج 1.

(215) الحضارات الأفريقية — لدنيز بولم — ص 73.

(216) الاستقصا — للناصري — ج 5 ص 125.

وتحدث عن القتال الذي دار فعلا بين الطرفين فقال: «ولما تقارب الجمعان عبأ الباشا جؤذر عساكره وتقدم للحرب فدارت بهم عساكر السودان من كل جهة ... وكانت سلاحهم إنما هي الحرشان الصغار والرماح والسيوف ولم تكن عندهم هذه المدافع فلم تغن حرشانهم ورماحهم مع البارود شيئا ولما كان آخر النهار هبت ريح النصر وانهزم السودان فولوا الأدبار وحق عليهم البوار وحكمت في رقابهم سيوف جؤذر وجنده حتى كان السودان ينادون: نحن مسلمون، نحن اخوانكم في الدين، والسيوف عاملة فيهم وجند جؤذر يقتلون ويسلبون في كل وجه»(217) وكذلك تحدث عن الذهب الذي فاض على المنصور من جراء ذلك الغزو فقال: «ولما فتح الله عليه ممالك البلاد السودانية حمل إليه من التبر ما يعي الحاسبين ويحير الناظرين حتى كان المنصور لايعطى في الرواتب إلا النضار الصافي والدينار الوافي وكان ببابه كل يوم أربعة عشر مائة مطرقة لضرب الدينار الوافي دون ما هو معد لغير ذلك من صوغ الأقراط والحلي وشبه ذلك، ولأجل هذا لقب بالذهبي لفيضان الذهب في أيامه».(218)

بسبب كل ذلك لم يكلف هؤلاء الكتاب أنفسهم عناء البحث عن السبب الحقيقي الكامن وراء هذا الغزو بغض النظر عن وقائعه ونتائجه. والسبب الحقيقي للغزو والذي غاب عن هؤلاء الكتاب هو أن مملكة سنغاي مملكة اسلامية كما رأينا. وكان مولاي أحمد المنصور السعدي يخطط لاسترداد مجد الاسلام الضائع في الأندلس سيرا على سنة سلاطين المغرب في مثل ما تقدم عن الزلاقة(219). لذلك رأى السلطان المغربي أن من واجب هذه المملكة الاسلامية السودانية الغنية بذهبها أن تساهم في هذا المجهود لأن المسلمين كجسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. فطلب السلطان المغربي من السلطان السوداني أسكيا اسحاق أن يتخلى عن جزء من مناجم ذهبه لضمان تمويل الحملة التي خطط لها، ولكن يبدو أن أسكيا اسحاق لم يكن قد بلغ من ادراك روح الاسلام مبلغا يمكنه من فهم هذه الحقيقة بحيث أن هذه القضية لو حدثت في

---

(217) الاستقصا ج 5 ص 122.

(218) نفس المصدر ج 5 ص 125.

(219) راجع ص 178 ــ 179 من هذه المجلة.

أيام السلاطين السودانيين الغيورين على الاسلام أمثال منسى موسى وأسكيا محمد لكان مجرى الأحداث على خلاف ما وقع، إذ بسبب قصور أسكيا اسحاق في ادراك روح الاسلام وقلة غيرته على هذا الدين الحنيف لم يكن رد فعله من هذا الطلب الاسلامي إلا غضبة عارمة. فقد ذكر الأستاذ بووا: «أن أسكيا لما بلغ إليه هذا الطلب المغربي اشتاط غيظا وقال: إن اسحاق الذي سيلبي مثل هذا الطلب لم يولد بعد»(220). وقد أدى سوء أدب أسكيا اسحاق مع السلطان المغربي مع عزيمة هذا الأخير على تنفيذ خطته إلى تجريد الحملة التي قضت على مملكة سنغاي، ولو أن خطة المنصور المذكورة لم يكتب لها بعد ذلك أن ترى النور وذلك لأسباب لاعلاقة لها بالغزو نفسه.

يقول الأستاذ ابراهيم حركات في توضيح ذلك: إن مولاى أحمد المنصور السعدي: «خطط لاسترداد الأندلس وقام بمساع دبلوماسية متواصلة لدى بريطانيا لعقد حلف مشترك وعرض على أسكيا اسحاق ملك سنغاي التخلي عن بعض مناجم الذهب لضمان تمويل الحملة المغربية التي خطط لها، علما بأن المغرب هو الذي تولى عبء فتح الأندلس بقيادة عليا عربية قبل ذلك بتسعة قرون ونيف وكانت ردود فعل أسكيا خالية من اللباقة وانتهى الأمر بتجريد الحملة التي عملت على فتح أفريقيا الغربية في مطلع القرن 11 هـ و 17 م أما خطط أحمد المنصور فتوقفت بموته المباشر وبوفاة اليزابيت ملكة بريطانيا في نفس الوقت»(221).

فهذا هو السبب الحقيقي الذي أدى إلى الغزو المذكور ولا أدل على صحة ذلك من أن الذهب كان دائما موجودا في السودان الغربي وبكميات هائلة عندما كان المغرب يحكم هذه المناطق حكما مباشرا أيام المرابطين ومع ذلك لم يكن يقض مضجع المغاربة إلا شيء واحد وهو: كيف يمكنهم أن يخرجوا هؤلاء السودانيين من ظلمات الوثنية إلى نور الاسلام ويرسخوا فيهم أصول وقواعد أم المذاهب الفقهية ويؤسسوا لهم جامعات تكون شقيقة جامعات القرويين والقيروان وقرطبة، تخرج فطاحل العلماء ونوابغ الفقه وحفاظ المذهب المالكي أمثال أحمد بابا التمبكتي وغيره. ثم مكث هؤلاء المغاربة في هذه البلاد فترة من

(220) العالم القديم — لبووا — ج 1 ص 197.

(221) العلم السياسي، السنة الأولى العدد الثاني، غشت 1982 م ص 2.

الزمن يجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل تحقيق هذه الأهداف حتى إذا ما تم لهم ما أرادوا انسحبوا بسلام دون أن يلتفتوا إلى الثروات الذهبية التي كانت هذه البلاد تزخر بها، فلزم أن يكون الذي جد في أيام السعديين غير البحث عن الذهب.

وعلى كل حال فإن انتشار المذهب المالكي في نيجيريا الذي نحن بصدد الحديث عنه لا يتأثر كثيرا بهذا الموضوع لأن المذهب المالكي توطدت أركانه في نيجيريا بسقوط مملكة سنغاي مهما كانت الأسباب التي أديت إلى قيام المغرب بالقضاء عليها، ذلك أنه في الوقت الذي نقل فيه إلى المغرب بعض العلماء وحفاظ المذهب المالكي الذين كانت جامعات تمبكتو وجنى وغيرهما تزخر بهم[222] فإن معظم هؤلاء الأعلام وجدوا سبيلهم إلى كانو وكاشنة وغيرهما من المدن النيجيرية التي كانت مزدهرة بالفقه المالكي، واستقروا هناك بصفة نهائية وعملوا على نشر هذا المذهب إلى سائر المدن النيجيرية بل عملوا على نشره إلى سائر بلدان غرب أفريقيا فحلت هذه المدن النيجيرية بذلك محل تمبكتو وجنى وصارت تلعب «دورا بارزا وهاما في ميدان الثقافة العربية الاسلامية لايقل عن الدور الذي لعبته من قبل مدينة تمبكتو».[223] وسيزداد هذا الأمر وضوحا بعد أن نتحدث عن دور الهجرة في نشر المذهب المالكي في نيجيريا. ولكن قبل ذلك فلا شك من مجموع ما تقدم أن امبراطورية سنغاي في نهوضها وفي سقوطها معا لعبت أعظم الأدوار في تعميق جذور الفقه المالكي في نيجيريا.

(222) العالم القديم ــ لبووا ــ ج 1 ص 198.

(223) مجلة فيصل، السنة 3 العدد 34 ربيع الثاني 1400، مارس 1980 ص 117.

المبحث السادس

دور مملكة برنو وكانم

وآخر الممالك السودانية التي ساهمت في توطيد أركان المذهب المالكي في نيجيريا هي مملكة برنو وكانم. وقد اختلف المؤرخون في تاريخ نشأة هذه المملكة وفي أصل مؤسسيها تماما كما اختلفوا في الممالك السودانية السابقة. فقال بعضهم إن الذين أسسوها كانوا من تبايعة اليمن وقال بعضهم الآخر انهم كانوا من أولاد عثمان بن عفان رضي الله عنه وقال فريق من المؤرخين انهم كانوا من البرابرة وقال فريق آخر غير ذلك.

جاء في صحيح الأعشى: «وقد وصل كتاب ملك البرنو في أواخر الدولة الظاهرية (برقوق) يذكر فيه أنه من ذرية سيف بن يزن إلا أنه لم يحقق النسب فذكر أنه من قريش وهو غلط منهم فإن سيف بن ذي يزن من أعقاب تبابعة اليمن»[224]. وجاء فيه أيضا: «وسلطان هذه البلاد رجل مسلم. قال في تقويم البلدان: وهو من ولد سيف بن ذي يزن. قال في مسالك الأبصار: وأول من بث الاسلام فيهم الهادي العثماني ادعى أنه من ولد عثمان بن عفان رضي الله عنه وملكها ثم صارت بعده لليزنيين. وذكر في التعريف أن سلطان الكانم من بيت قديم في الاسلام وقد جاء منهم من ادعى النسب العلوي في بني الحسن ثم قال: وتمذهب بمذهب الشافعي رضي الله عنه».[225] وقال الدكتور عبدول: «كان تأسيس مملكة برنو على يد السود من الصحراويين الرحل المعروفين باسم زاغاوا».[226] وقال الشيخ آدم «البرناويون والكانميون قوم من البرابرة جيران النوبة».[227]

ومملكة برنو وكانم أقرب الممالك السودانية إلى نيجيريا من حيث الموقع. فقد قامتا حول بحيرة تشاد وكانت كانم في شمال البحيرة وبرنو في جنوبها. يقول

(224) صبح الأعشى ج 5 ص 279.

(225) صبح الأعشى ج 5 ص 281.

(226) أصل الاسلام التاريخي لعبدول 120/5.

(227) الاسلام في نيجيريا لآدم ص 29.

الشيخ آدم: «لقد قامت هاتان المملكتان على التعاقب حول بحيرة شاد وتنقلت عاصمتها بين كانم وكوكاوا كرات عديدة، مرة في كانم وكرة في برنو».[228] وقد «كانت برنو وكانم في أول الأمر مملكة واحدة»[229] وظل الأمر هكذا إلى القرن الرابع عشر الميلادي حين عمل بعض ملوكها على الفصل بينهما «فصارت برنو مملكة مستقلة عن كانم وتطورت الأحداث حتى أصبحت برنو أهم من كانم».[230] و«كان ملوكها الأولون يعرفون باسم أوم ثم انتقل إلى أيدي ماي ثم انتقل إلى أيدي شيوخ».[231]

وعلاقة مملكة كانم وثيقة جدا بمصر وذلك بحكم موقعها قرب مصر، وكذلك هي وثيقة بشمال أفريقيا عموما حتى ذكر البكرى أن ملوكها كانوا يختارون زوجاتهم من النساء النبيلات من شمال أفريقيا[232]. ولكن مع ذلك لابد من التأكيد هنا على أن مملكة كانم وبالأحرى برنو لا يقل تشبثا بالمذهب المالكي عن غيرها من الممالك السودانية وإلى اليوم لايزال حتى الحكام يشجعون الناس على التمسك بالمذهب المالكي في دولة تشاد التي كانت قلب مملكة كانم القديمة رغم قربها من مصر ورغم ما سبق أن نقلناه من أنه كان من ملوكها القدامى من تمذهب بالمذهب الشافعي.[233]

يقول الأستاذ عطية صقر: ان المسلمين في دولة تشاد «يدينون بعقيدة أهل السنة ويتفقهون على مذهب الامام مالك الذي وفد مع الدعاة والمعلمين والذي شجع الأخذ به السلطان رابح»[234] ومن حديثنا السابق عن المرابطين وغيرهم يظهر أن الدعاة والمعلمين الذين ذكرهم عطية صقر ليسو سوى هؤلاء المرابطين ومن بعدهم لما تقدم من قوة أثرهم في السودان الغربي بصفة عامة، وبالنظر إلى تاريخ انتشار الاسلام والمذهب المالكي في هذه البلاد. فقد سبق الاشارة إلى قدم

---

(228) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(229) تاريخ غرب أفريقيا وأوربا لبووا 121/2.

(230) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(231) الاسلام في نيجيريا للشيخ آدم ص 30.

(232) نجيريا : عملاق أفريقيا التائه ص 22.

(233) وراجع كذلك صبح الأعشى ج 5 ص 281.

(234) مجلة الأزهر ج 1 السنة 34 المحرم سنة 1382 هـ يونيو 1962 م ص 69.

الاسلام فيها إلا أن الاسلام ظل يعيش فيها مع الوثنية مغلوبا على أمره حتى سنة 1086 م حين أسلم الملك عبد الجليل فصارت مملكة اسلامية. يقول الأستاذ بووا: «ومن يوم أن أسلم الملك عبد الجليل سنة 1086 م صار الاسلام راسخا في هذه المملكة».[235] وهذه الفترة هي التي بلغ فيها نشاط المرابطين في غرب أفريقيا ذروته كما تقدم. ومما يؤيد ذلك أيضا قوة تمسك هذه المملكة بالمذهب المالكي من ذلك الوقت إلى درجة أنها خصصت لأبنائها في الأزهر رواقا للفقه المالكي رغم ما تقدم من أن بعض ملوكها كان قبل ذلك التاريخ يمذهب الشافعي. يقول القلقشندى: «والعدل قائم في بلادهم ويتمذهبون بمذهب الامام مالك رضي الله عنه ... وقد بنوا مدرسة للمالكية بالفسطاط ينزل بها وفودهم».[236] ويقول الشيخ آدم: «وكان لأهلها في القاهرة مدرسة خاصة بالفقه المالكي ثم خصص لهم بالأزهر رواقا ضمن أروقة [illegible] الاسلامية».[237] ويقول الدكتور عبدول: «وفي منتصف القرن الثالث عشر الميلادي كانت مملكة كانم قد قويت اتصالاتها بالقاهرة حيث كان عدد كبير من طلابها حتى خصص لهم رواق للفقه المالكي يسمى رواق ابن رشيق»[238].

ومن أعظم ملوك هذه المملكة الذين عملوا على نشر الاسلام والمذهب المالكي فيها حتى شمل عملهم أجزاء كثيرة من نيجيريا: الملك ادريس ألوما. وكان من أعظم ملوكها على الاطلاق. يقول الدكتور عبدول: «وكان أعظم ملوك مملكة برنو هو ادريس بن علي المشهور بمادي ادريس ألوما الذي امتدت فترة حكمه من سنة 1570 م إلى سنة 1602 م»[239] ويقول الأستاذ بووا: «وكان من أعظم ملوك مملكة برنو وكانم: ملك ادريس كَاتَاكَارْمَابْ الذي امتدت فترة حكمه من سنة 1504 إلى سنة 1526 م .وكذلك ابنه محمد الذي عمل على توسيع حدود المملكة ... ولكن أعظم ملوكها على الاطلاق هو ادريس ألوما (1571-1603 م) الذي أجرى اصلاحات كثيرة خلال فترة حكمه الطويلة

(235) تاريخ غرب أفريقيا وأوربا ــ تأليف ف.ك. بووا ــ ج 2 ص 121 (باللغة الأجنبية).

(236) صبح الأعشى ج 5 ص 281.

(237) الاسلام في نيجيريا ــ للشيخ آدم ــ ص 30.

(238) أصل الاسلام التاريخي ــ للدكتور موسى عبدول ــ ج 5 ص 120-121.

(239) نفس المصدر. ج 5 ص 121 (باللغة الأجنبية والترجمة لي).

وحاول أن يجعل الاسلام أقوى رابطة توحد شعوب مملكته وكان مؤمنا راسخ الايمان فلم يكتف بأداء فريضة الحج بل بنى هناك رواقا ينزل فيه سائر الحجاج وكان له سفراء إلى بلدان بعيدة».[240] ومثله قول الدكتور عبدول: «ان أشهر ملوك برنو هو ادريس بن علي الشهير بماي ادريس ألوما الذي امتدت فترة حكمه من سنة 1570 إلى سنة 1603 م ... وبذل كل ما في وسعه لنشر الاسلام وجعله دين الدولة حتى لم يبق انسان معتبر في دولته إلا وقد أسلم وقد استبدل هذا الملك القانون العرفي بالشريعة الاسلامية وأسس المحاكم الشرعية في جميع أنحاء مملكته وفصل السلطة القضائية من السلطة التنفيذية وبنى المساجد بالحجارة في جميع أرجاء مملكته ولم يكتف بأداء فريضة الحج بل بنى في مكة أروقة ينزل بها الحجاج البرناويون»[241].

على أن اهتمام ماي ادريس ألوما بنشر الاسلام لم يكن مقصورا على مملكته بل عمل كذلك على نشره في المناطق المجاورة فتوسعت بذلك حدود هذه المملكة «حتى كانت مملكة برنو يوما ما من أقوى الممالك التي قامت بغرب أفريقيا»[242]. وكان مما ساعده على ذلك أنه كان يستعين بالدول الاسلامية الأخرى لما كان يرى أن جهاده لجيرانه بهدف نشر الاسلام وتوطيد أركان المذهب المالكي في دولها، هو من أقدس الأعمال. ولما كان السودانيون عموما يعتبرون المغرب بمثابة القيادة العليا للجهاد الاسلامي والمسؤول الأول عن نشر المذهب المالكي ـــ هذا الشعور الذي لم يفتر أبدا حتى إلى القرن التاسع عشر عندما قام الشيخ عثمان ابن فودى بالجهاد الاسلامي الكبير في نيجيريا فقد كان من الطبيعي أن يعمل السلاطين البرناويون المتحمسون للجهاد على تمتين العلاقات بينهم وبين المغرب إلى حد تبادل الهدايا، حتى بلغ ذلك ذروته في عهد ادريس ألوما المذكور الذي لشدة اهتمامه بالجهاد لم يكتف بمجرد ارسال الهدايا إلى السلطان المغربي وطلب المدد منه بل بايعه أيضا ودخل في طاعته حين طلب السلطان المغربي منه ذلك كشرط لامداده بالسلاح الذي كان في حاجة إليه في

(240) تاريخ غرب أفريقيا وأوربا ـــ لبووا ـــ ج 2 ص 121-122.
(241) أصل الاسلام التاريخي ـــ للدكتور موسى عبدول ـــ ج 5 ص 121.
(242) نيجيريا وجيرانها ـــ لفاجانا ـــ ج 1 ص 90.

جهاده ولم ير أي غضاضة في ذلك لأنه أصلا يعتبر المغرب بمثابة القيادة العليا للجهاد الاسلامي والمسؤول الأول عن نشر المذهب المالكي وهو نفس الهدف الذي يسعى له.

يقول الناصري في توضيح ذلك: «كان المنصور رحمه الله مسعودا محظوظا ... وكان من سعادته ما هيأ الله له من مهاداة صاحب مملكة برنو ومخاطبته له حتى كان ذلك سببا في مبايعته له والدخول في طاعته ... وكان من خبر ذلك ما حكاه في مناهل الصفا قال: وفي سنة تسعين وتسعمائة ورد على المنصور الخبر وهو بمدينة فاس بقدوم رسول صاحب مملكة برنو من ملوك السودان وجلب في هديته ما جرت عادتهم أن يجلبوه من فتيان العبيد والإماء وكسا السودان وطرفه وكان من ذلك عدد كثير يناهز المئين .. فأدى الرسالة وقضى فرض التهنئة .. وكان من أغراض الرسالة التي أنفذه بها سلطانه طلب المدد من أمير المؤمنين بالعساكر والأجناد وعدة البندق ومدافع النار لمجاهدة من يليهم بقاصية السودان من الكفار ... فلما تحقق المنصور بقصده صدع له بالحق والدعاء إلى التي هي أقوم وطالبه بالبيعة له والدخول في دعوته النبوية التي أوجب الله عليهم وعلى جميع العباد في أقطار البلاد الانقياد إليها وقرر لهم بلسان السنة الناطق والكتاب المنزل على جده الصادق أن الجهاد الذي ينتحلونه ويظهرون الميل إليه والرغبة فيه لايتم لهم فرضه ولا يكتب لهم عمله مالم يستندوا في أمرهم إلى اذن من امام الجماعة الذي اختص الله أمير المؤمنين بوصفه ... وعلق لهم أيده الله الامداد على البيعة والوفاء بهذا الشرط فالتزمه الرسول وزعم أيضا من سلطانه بالقبول والاجابة».[243]

وسبق أن ذكرنا أن مملكة برنو وكانم أقرب الممالك السودانية إلى نيجيريا[244] ولذلك كان من الطبيعي أن تكون نيجيريا أكثر الدول تأثرا بهذا الحماس المنقطع النظير للجهاد والذي كان ماي ادريس يتميز به، فلم تمض إلا فترة وجيزة حتى سقطت كل امارات الهوسا في يده بما فيها امارة كانو التي

---

(243) الاستقصا ج 5 ص 104-106.

(244) راجع ص 218 ــ 219 من هذه المجلة.

سبق أنها كانت مستعصية على الفتح.[245] يقول الأستاذ عبد الفتاح الغنيمي: «إن امارات الهوسا كانت مسرحا للصراع المستمر بين مايات برنو وسراكنة[246] الهوسا فنجد السلطان ادريس ألوما (1570-1603) سلطان برنو يستولي على كثير من بلاد الهوسا وكانت أقوى دول الهوسا في ذلك الوقت امارة كانو فدمر عددا كبيرا من معاقلها في كَلَمَاسَارْ واستولى على كثير من مدنها».[247].

ولم يزل ماي ادريس هذا يجاهد ويتوغل جنوبا حتى لقى حتفه في إحدى معاركه بعد أن أخضع امارات الهوسا لحكم دولته الاسلامية[248] المتشبثة بالمذهب المالكي كما تقدم[249]. ولذلك فإنه يعتبر من أبرز من عمل على توطيد أركان المذهب المالكي في نيجيريا. وبالاضافة إلى ذلك فإن كثيرا من الفقهاء البرناويين هاجروا إلى نيجيريا واستقروا فيها بصفة نهائية فكان أثر مملكة برنو في نشر الاسلامّ والمذهب المالكي في نيجيريا. وبالاضافة إلى ذلك فإن كثيرا من الفقهاء البرناويين هاجروا إلى نيجيريا واستقروا فيها بصفة نهائية فكان أثر مملكة برنو في نشر الاسلام والمذهب المالكي في نيجيريا أثرا عظيما. يقول الأستاذ عبد الفتاح الغنيمي: «ولقد تركت برنو تأثيرا حضاريا اسلاميا قويا في امارات الهوسا ذلك لأن كثيرا من العلماء الذين عاشوا في برنو قد رحلوا إلى تلك الامارات وأحضر هؤلاء العلماء معهم الكتب والتعاليم الاسلامية والكتابة العربية والخط المغربي إلى كانو وكتسينا وغيرهما من الامارات التي خضعت لبرنو ولاسيما الامارات الشرقية منها وذلك للجهود الهائلة التي قام بها أهل برنو، ولكن هذا التأثير القوي لبرنو امارات الهوسا قد ازداد نموه في القرن السادس عشر الميلادي وذلك أثر خضوع هذه الامارات لسلطنة برنو السياسية ومن ثم فإن سلطنة برنو استطاعت أن تدعم نفوذها الثقافي بعد أن دعمت نفوذها السياسي».[250]

---

(245) راجع ص 211 من هذه المجلة.

(246) سراكنة جمع سركى وهو لقب السلطان عند الهوسا، أما مايات فجمع ماي وهو لقب سلطان برنو.

(247) مجلة الفيصل، السنة 3 العدد 34 ربيع الثاني 1400 هـ مارس 1980 م ص 117.

(248) تاريخ غرب أفريقيا وأوربا — لبووا — ج 2 ص 122.

(249) راجع ص 217 — 219 من هذه المجلة.

(250) مجلة الفيصل، السنة 3 العدد 34 ربيع الثاني 1400 هـ مارس 1980 م ص 116.

ومن الجدير بالملاحظة هنا أن ذكرنا لأثر مملكة برنو في نشر المذهب المالكي في نيجيريا إنما جاء اتباعا للمنهج العام الذي سرنا عليه في كل ما تقدم والذي بمقتضاه نستعرض الأحداث ثم نبين كيف أثرت هذه الأحداث في نشر المذهب المالكي في نيجيريا وإلا فإن ذلك بالنسبة لمملكة برنو لم يكن ضروريا لأن الاستعمار الأوربي عندما تدخل في هذه المنطقة واصطنع لها الحدود ووضع بين شعوبها الحواجز، لم يستطع أن يفصل مملكة برنو القديمة تماما عن دولة نيجيريا الحديثة ولذلك فإن القسم الأكبر من هذه المملكة لازال إلى اليوم جزءا لا يتجزأ من أجزاء دولة نيجيريا الحديثة، بل «ان اقليم برنو في الشمال الشرقي من نيجيريا أكبر من الاقليم الغربي بأكمله وأكبر من الاقليم الشرقي بأكمله كذلك»[251]. فالحديث عن مملكة برنو المتشبثة بالمذهب المالكي الحريصة على نشره وجهاد الخلق به حتى دخل سلطانها من شدة حرصه على ذلك في طاعة السلطان المغربي كما مر قريبا، كل ذلك في الواقع حديث مباشر عن انتشار المذهب المالكي في نيجيريا نفسها. فعوضا عن القول بأن الأحداث التي استعرضناها فيما سبق تبرز الدور العظيم الذي قامت به مملكة برنو في سبيل تعميق جذور المذهب المالكي في نيجيريا، كان ينبغي أن نقول إنها تدل على مدى رسوخ هذا المذهب في نيجيريا وتوضح أسباب هذا الرسوخ. على أن هناك عوامل أخرى ساهمت بدورها مساهمة فعالة في توطيد أركان المذهب المالكي في نيجيريا.

(251) نيجيريا وجيرانها لفاجانا ج 1 ص 90، وراجع كذلك جغرافيا جديدة لنجيريا ص 16.

المبحث السابع

دور الهجـرة

عندما تحدثنا عن دور التجارة في نشر المذهب المالكي في نيجيريا أثبتنا أن الصلات التي تربط شمال أفريقيا بغربها متوغلة في القدم وأنها تعود إلى ما قبل ظهور الاسلام بمئات السنين[252]. وعندما تحدثنا عن دور الممالك القديمة التي قامت في السودان الغربي، تبين لنا أن البيضان المهاجرين سبقوا إلى تأسيس هذه الممالك قبل أن تنتقل إلى السودان.[253] ففي كل ذلك ما يدل على أن الهجرات إلى غرب أفريقيا قديمة جدا إلا أن هذه الهجرات القديمة كانت متقطعة ولم تزل كذلك حتى تم تعريب شمال أفريقيا واقرار المذهب المالكي فيه فاتصل الشمال بالغرب اتصالا لاينقطع مما زود نيجيريا بعدد ضخم من المالكيين المهاجرين المتحمسين على نشر هذا المذهب. وقد ترك هؤلاء في الميدان أثرا لايعفى أبدا.

يقول باذل دافدسن: «كانت هجرات الشمال الأفريقي والشمالي الشرقي للسودان القديم الممتد بين النيل والنيجر متقطعة قبل أن يستقر العرب استقرارا في الشمال ولكنها اتصلت اتصالا واسعا بعد هذا العهد فاتسع نطاق التجارة والهجرة والاستيطان فبعد أثر العرب في حياة الزنج وعمق».[254] ويقول محمود شاكر: «كانت هجرة القبائل العربية والبربرية شائعة في تلك المناطق كأية منطقة صحراوية في أية جهة من جهات العالم. فكلما انتقلت قبيلة نقل معها الدين واللغة»[255]. وعندما زار ابن بطوطة السودان الغربي وجد جالية كبيرة من أهل المغرب ومصر وغيرهم. وقد اتخذت هذه الجاليات لنفسها أحياء خاصة بها في المدينة. فأفرد رجل من أهل المغرب لابن بطوطة دارا ينزل بها وأخذت الهدايا

---

(252) راجع ص 162 ــ 164 من هذه المجلة.

(253) راجع ص 185 ــ 186 من هذه المجلة.

(254) أفريقيا تحت أضواء جديدة ــ لباذل دافدسن ــ ص 20 (ط. دار الثقافة ــ بيروت).

(255) نيجيريا ــ لمحمود شاكر ــ ص 16 (ط. مؤسسة الرسالة بيروت ط. 2 عام 1971 م).

تتوالى عليه من كل حدب من هؤلاء المهاجرين حتى انضم إليهم في ذلك أفاضل السودانيين وقاموا بحقه أتم القيام وأطعموه أفضل أنواع طعامهم فكان من ذلك أن تناول ابن بطوطة نوعا أمرضه فتولى أفراد الجالية المصرية تمريضه.[256]

فكل ذلك يوضح لنا أن هجرة القبائل العربية المسلمة كانت شائعة في السودان الغربي ونظرا لهذا الشيوع فإنني لن أحاول هنا تتبع هذه الهجرات، بل سأكتفي بأهمها وخاصة تلك التي تركت أثرا بارزا في ميدان نشر المذهب المالكي في داخل نيجيريا نفسها. ولولا أننا سبق أن تحدثنا عن التجار لصح لنا أن نذكر هؤلاء التجار في مقدمة المهاجرين الذين حملوا الاسلام والمذهب المالكي إلى نيجيريا. فإننا لانزال نلاحظ أن أسبق المدن النيجيرية إلى ميدان الحضارة الاسلامية وأقواها في التشبث بالمذهب المالكي هي تلك التي تقع على طرق القوافل والتي قامت فيها أسواق عظيمة يحضرها العرب والبرابرة والوناغرة وغيرهم وذلك مثل مدينة كانو وكاشنة، وأن أبعد المدن والامارات عن هذه الطرق التجارية هي أيضا أبعدها من مسايرة الركب الحضاري المالكي كإمارة بيرم وإمارة جوبر.

ولكن بما أننا كنا خصصنا للتجارة حديثا[257] فإننا سنقتصر هنا على الحديث عن أصناف أخرى من المهاجرين الذين تركوا في ميدان نشر المذهب المالكي في نيجيريا أثرا لايقل عمقا عما تركه التجار وغيرهم. ومن أوائل الهجرات الهامة التي زودت نيجيريا بعناصر نشطة من الدعاة: تلك التي اتجهت إلى نيجيريا بعد سقوط دولة غانة في أيدي المرابطين اذ تدفق عليها الوناغرة المسلمون ليعززوا عمل التجار الذين سبقوهم كما ذكرنا سابقا.[258] وقد ظلت هجرة الوناغرة تتدفق إلى نيجيريا قرونا بعد ذلك حتى كان لهم أعمق الأثر في نشر المذهب المالكي في هذه الديار وكان من أبرز ذلك ما سبق أن أشرنا إليه مما حدث في عهد السلطان على ياجى سلطان امارة كانو والذي امتد إليه نشاط هؤلاء الوناغرة حتى اشترك معهم في الدعوة فأصدر أمرا يلزم الناس كلهم بإقامة

(256) راجع رحلة ابن بطوطة ص 665.

(257) راجع ص 162 فما بعدها من هذه المجلة.

(258) راجع ص 188 — 189 من هذه المجلة.

الصلاة كما تقدم.[259] ومن هجرات الماليين الهامة كذلك ما ذكره عبد الفتاح الغنيمي في قوله: «وتذكر المصادر التاريخية أن دولة كاتسينة من دول الهوسا الهامة وأن اسلام ملكها الساركي محمد كورا الذي ولى عرش كاتسينة عام 1300 م على أيدي بعض الدعاة الذين جاءوا إليها من مالي وبعد الساركي محمد كورا يبدأ الحكم والعهد الاسلامي في كاتسينة ذلك لأن الاسلام قد بدأ ينتشر على نطاق واسع نظرا لاستقرار العديد من العلماء المسلمين الذين أحضروا معهم الكتب الاسلامية في الدين واللغة العربية بل إن هؤلاء العلماء قد تبعهم بعض الدعاة والتجار المسلمين الذي قدموا إليها من مالي».[260]

وسبق الحديث عن مملكة مالي وعن سلطانها العظيم منسى موسى وذكرنا حينئذ أن الماليين لم يكونوا متشبثين بالمالكية فحسب كغيرهم من رعايا الممالك السودانية بل كانوا كذلك متشبثين بالمغاربة في كل شيء حتى في طريقة الكتابة واللباس وغيرها.[261] فكان من الطبيعي أن ينقلوا كل ذلك إلى نيجيريا ليعززوا به التأثيرات الواردة من الجهات الأخرى. وقد ترك هؤلاء الماليون أعمق الأثر في نشر الاسلام والمذهب المالكي في نيجيريا وذلك بسبب نشاطهم وضخامة عددهم حتى أثروا في امارات متعددة من امارات الهوسا. فإلى جانب امارة كاشنة التي كان اسلام أميرها على أيديهم وكانو التي هي مركز المهاجرين والتجار وغيرهم فقد تركوا في امارة زاريا أعمق أثر كذلك. يقول الدكتور عبدول: «عندما دخلت مملكة مالي في الانحطاط هاجر العديد من المعلمين الماليين بحثا عن أوطان جديدة وقد انتهى معظم هؤلاء إلى بلاد الهوسا حتى أن جل الجماعات في شمال نيجيريا تعزى اسلامها إلى الماليين ... وقد كوّن هؤلاء الماليون لأنفسهم نفوذا عظيما واحتراما كبيرا».[262] وكان ذلك بسبب نشاطهم العظيم في سبيل نشر الاسلام وتوطيد أركان المذهب المالكي في نيجيريا، وبلغوا من النفوذ والاحترام أنه «في حوالي سنة 1500 م قام سلطان امارة زاريا بتعيين فقيه مالي

(259) راجع ص 201 من هذه المجلة.

(260) مجلة الفيصل، السنة 3 عدد 34 مارس 1980 ص 118، أصل الاسلام للدكتور عبدول 120/5.

(261) راجع ص 199 من هذه المجلة.

(262) أصل الاسلام التاريخي — للدكتور موسى عبدول — ج 5 ص 111.

على رأس اقليم وثني من أقاليم امارة زاريا».[263] يقول محمد جلال عباس: «وفي عهد الأمير يعقوب (1452 - 1463 م) وهو الملك التاسع عشر حدثت هجرة كبيرة انتقل فيها إلى كانو الكثير من جماعات الوناغرة وهم من العناصر الرئيسية التي كونت امبراطورية مالي وذلك بعد أن زاد ضغط الغزوات الخارجية على هذه الامبراطورية الاسلامية العظيمة من موسى في الجنوب ومن المغاربة والطوارق في الشمال وكان للمهاجرين الجديد بعد أن اختلطوا بسكان مدينة كانو أثرهم الكبير في تعميق جذور العقيدة الاسلامية عند الهوسا»[264].

من مجموع ما تقدم يتبين لنا أن الماليين ساهموا مساهمة فعالة في تعميق جذور المذهب المالكي في نيجيريا وذلك بهجراتهم المتعددة إلى هذه المناطق وباستقرارهم فيها بصفة نهائية مع نشاطاتهم المعهودة في سبيل نشر الاسلام والمهذب المالكي. يقول الشيخ آدم: «للوناغرة فضل كبير في نشر المذهب المالكي بهذه البلاد وكانوا يستعملون مختصر ابن الحاجب قبل ظهور مختصر خليل وكان اعتمادهم على المدونة الوسطى المسماة بالتهذيب للبرادعي أكثر من اعتمادهم على المدونة الكبرى لسحنون».[265]

ومن الهجرات الهامة كذلك هجرة العلماء البرناويين من مملكة برنو إلى سائر امارات الهوسا. فقد عملوا على نشر المذهب المالكي هناك إلى جانب نقلهم الكتب الاسلامية والخط المغربي إلى هذه الامارات كما تقدم.[266] ومن أهم الهجرات على الاطلاق في ميدان تعميق جذور المذهب المالكي في نيجيريا: هجرات الفلاني من المغرب والسنغال إلى نيجيريا بأعداد هائلة من القرن الثالث عشر الميلادي.[267] يقول الدكتور محمد السيد غلاب وزملاؤه: «واجهت تلك القبائل هجرات شعب الفلاني الذي يرجح أنه استقر في بلاد التكرور على نهر جامبيا حوالي القرن الثالث (9 م) وقد جاء هؤلاء من صعيد مصر وقد يكونون

(263) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(264) مجلة الأزهر، السنة 33 ج 6 جمادى الآخرة 1381 هـ نوفمبر 1961 م ص 693.

(265) مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية ــ للشيخ آدم ــ ص 15 (نشر المركز بلاغوس).

(266) راجع ص 222 ــ 223 من هذه المجلة.

(267) راجع أصل الاسلام التاريخي ــ للدكتور موسى عبدول ــ ج 5 ص 115.

من أصل مصري واتجهت هجراتهم غربا إلى بلاد المغرب ثم انحدروا إلى المحيط الأطلنطي فاستقر بعضهم هناك بينما مضى بعضهم الآخر حتى بلاد السنغال. وفي القرن السابع (13م) أخذت هجراتهم تتجه شرقا وتتدفق على شمال نيجيريا»[268] . (ويقول محمود شاكر عن هؤلاء الفلاني: «وقد جاءوا من صعيد مصر وهاجروا غربا عن طريق بلاد المغرب ثم انحدروا إلى المحيط الأطلسي فاستقر بعضهم هناك ومضى بعضهم الآخر قدما حتى بلاد السنغال وتسربوا إلى بلاد الزنوج تسربا سلميا واستطاعوا أن يكونوا أسرة حاكمة ظلت تحكم مدينة أوكور حتى نهاية القرن الثاني الهجري وقد سقطت هذه الأسرة عندما ثار عليهم شعب الونكي وقد هاجر الفلاني بعد سقوط حكومتهم إلى بلاد التكرور في السنغال واستقروا على نهر غمبيا وقد أصهر هؤلاء إلى شعب التوكلور فسيطروا بذلك على الحياة السياسية واستطاعوا أن يحكموا مملكة تكرور حتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي حيث استطاع شعب التوكلور أن يتخلص منهم فبدأوا يتجهون نحو الشرق نحو بلاد الهوسا».[269]

ومع أن الفلانى منتشرون في جميع غرب أفريقيا فإن أكبر تجمع لهم هم في نيجيريا واندماجهم فيها أتم اندماج لذلك كان أثرهم فيها أعمق أثر. جاء في الوعى الاسلامي ما نصه: «ومن الهجرات المؤثرة هجرات الفلانى من الغرب الافريقي حيث انتشروا في جميع أجزاء السودان من الأطلس حتى النيل لكن أكبر تجمع لهم كان في نيجيريا».[270] ويقول الدكتور عبدول: «والفلاني الذي استقروا في نيجيريا هم من أشهر قبائل الفلانى على الاطلاق».[271]

وهم على قسمين: قسم يعرف عند الهوساا بالفلانى برورو وهؤلاء يشتغلون بتربية المواشي وينتقلون من مكان إلى مكان في طلب أطيب المراعي ولا يختلطون بغيرهم إلا قليلا وإذا وجد في الفلانى وثنى فهو منهم، وقسم يعرف عندهم بالفلانى جيدا وهم الفلانى الحضريون. وهذا القسم من قسمى الفلانى

---

(268) البلدان الاسلامية والأقليات المسلمة ــ للمؤلف المذكور ــ ص 502-503 (ط. الأهلية بالرياض.

(269) نيجيريا ــ لمحمود شاكر ــ ص 59.

(270) مجلة الوعي الاسلامي، السنة 5 العدد 59 ذي القعدة 1389 ديسمبر 1969 ص 63.

(271) أصل الاسلام التاريخي ــ للدكتور موسى عبدول ــ ج 5 ص 116.

كثير الاختلاط بغيرهم «فقد تزاوجوا في نيجيريا بشعب الهوسا إلى درجة أنهم في خطر الاندماج الكامل مالم يأتهم مهاجرون جدد من إخوانهم»[272] بل يرى محمد جلال عباس أن الاندماج الكامل قد ظهرت بوادره فيقول: «إلى جانب التعاون الاقتصادي الذي قام بين الهوسا والفلانى نجد أن الوئام والاختلاط بل الاندماج الكامل قد ظهرت بوادره منذ أن بدأ المهاجرون الجدد من الفلانى يفدون إلى بلاد الهوسا ولم يجد الهوسا والفلانى أي نوع من الصعوبات تحول دون اختلاطهم فكلهم مسلمون ينتمون إلى دين واحد ويتبعون شريعة القرآن وقد ساعد على ذلك ظهور اتجاه جديد نحو دراسة الدين والتفقه فيه من أجل إحياء سنته وشرائعه والعمل على نشره بين القبائل التي لم تكن قد استظلت بظله أو تفتحت أعينها على نوره»[273]. ويرى السيد محمد عبد الفتاح ابراهيم أن الاندماج ليس في طريقه بل إنه قد تم فعلا. يقول: «ومن المؤكد أن الهوسا قد عاشوا في مناطق واسعة من الاقليم الشمالي قبل وصول الفلاني المسلمين الذي بدأوا يدخلون البلاد في القرن الثالث عشر الميلادي وقد تزاوج الفلانى والهوسا بدرجة كبيرة حتى انه لايوجد في الشمال غير القليل من الجماعات التي يمكن أن يقال عنها أنها الفلانى الخلص»[274].

وهؤلاء الفلانى جيدا الذين اختلطوا بشعب الهوسا هذا الاختلاط العظيم «هم من أرسخ الناس ايمانا في السودان الغربي بأكمله»[275] منهم «من يتعاطون التجارة والصناعة وأكثرهم يشتغلون بالتعليم إلى أقصى الحد حتى ظهر منهم العلماء الفحول في الفقه والأدب والاجتماع والدين، وللعلماء في قلوب عوامهم مكان مرموق ولهم قول مسموع ورأى متبوع في المنشط والمكره»[276]. فلما كانوا بهذه الصفة وكانوا مع ذلك قد استقروا في المغرب أرض المرابطين وفي السنغال مهجرهم فقد تزودوا بحماس المرابطين في نشر المذهب المالكي وبغيرتهم على هذا المذهب وعدم الرضا بغيره وذلك قبل أن يتوجهوا إلى نيجيريا كما رأينا،

(272) عثمان دان فوديو — للحاج شيخ شاغرى — ص 16 (باللغة الأجنبية والترجمة لصاحب البحث).

(273) مجلة الأزهر، السنة 33 ج 6 جمادى الآخرة 1381 نوفمبر 1961 ص 697.

(274) لوحات حبة من أفريقيا المعاصرة — للسيد محمد عبد الفتاح ص 199 (ط. الفنية بالقاهرة).

(275) أصل الاسلام التاريخي — للدكتور موسى عبدول — ج 5 ص 115.

(276) الاسلام في نيجيريا — للشيخ آدم — ص 93.

وانتهوا إلى نيجيريا ليختلطوا بشعبها هذا الاختلاط الذي انتهى إلى الاندماج الكامل. فقد كان من الطبيعي والحالة هذه أن يكون لهم أعمق الأثر في تقوية بنيان المذهب المالكي في الديار النيجيرية وأن يكون لهم دور فعال في تحسين تطبيق مقتضياته في الحياة النيجيرية العامة والخاصة وذلك دور مهم للغاية كما لايكاد يخفى إلا أن أمر الفلانى في نيجيريا لاينتهي عند هذا الحد. فقد كان من أسبقهم في الهجرة إلي نيجيريا: «موسى جاكولو الجد الحادي عشر للشيخ عثمان دان فوديو الذي هاجر مع جماعته ليستقروا في بِزِنِي كَوْنِي في امارة جَوْبَرْ»[277] وكان موسى جاكولو المذكور متوجها إلى الحجاز لأداء فريضة الحج حتى إذا ما وصل إلى نيجيريا ألقى فيها عصا الترحال وأقام فيها... حتى ولد بعد مئات السنين الشيخ عثمان بن فودي الذي تبحر في الفقه المالكي حتى نجب على يديه العديد من حفاظ المذهب ممن بلغوا رتبة الاجتهاد المذهبي وانتهى أمرهم جميعا إلى إقامة دولة مذهبية مالكية مرابطية في نيجيريا سجلها التاريخ بمداد الفخر وسمع بها العالم. فكان لهجرة الفلانى أعمق الأثر في نشر المذهب المالكي في نيجيريا.

وقصة موسى جاكولو هذه تبين أن رحلة الحج كانت من العوامل المشجعة للهجرة إلى نيجريا. جاء في الوعي الاسلامي ما نصه: «ولرحلة الحج أثر كبير في انتقال العلماء منهم وإليهم».[278] وذلك أن الحج في القديم كان يستغرق وقتا طويلا. يقول الكوخى: «وحجاج أقصى المغرب يخرجون قرب المحرم فيذهب في سفرهم واستراحتهم عامة السنة حتى يلحقوا الحج».[279] وقد يستغرق أكثر من ذلك بكثير خاصة إذا كان الحاج فقيرا يسعى لرزقه في أثناء الطريق. يقول الدكتور محمد عبد الغني: «كانت هذه الهجرات للحجاج تستغرق ذهابا وإيابا ما يزيد على عشر سنوات. وكان هناك قلة من الحجاج الفقراء يلحقون بقوافل الأغنياء ولكن غالبيتهم كانوا يرحلون معتمدين على أنفسهم ويسعون لرزقهم أثناء الطريق بالمشاركة في الأعمال التي يصادفونها»[280] فمن السهل جدا في مثل هذه الحالات أن يستقر الحاج ويتناسى الغرض الأصلي الذي خرج من أجله

(277) عثمان دان فوديو ــ للحاج شيخ شاغرى ــ ص 17.

(278) مجلة الوعي الاسلامي، السنة 5 العدد 59 ذي القعدة 1389 هـ ديسمبر 1989 ص 644.

(279) المسالك والممالك ــ للكوخى ــ ص 37 (ط. دار القلم بالقاهرة سنة 1961 م).

(280) قضايا أفريقية ــ للدكتور محمد عبد الغني سعودى ــ ص 82.

خاصة أنه قد يكون خرج في الأصل من أجل مشاكل وقعت له في وطنه فشد الرحال إلى مكة فرارا من المشاكل من جهة وانتهازا لفرصة كان ينتظرها للقيام بأداء فَريضة الحج من جهة أخرى. وهكذا كان الحج من أكبر العوامل المشجعة للهجرة إلى نيجيريا. ولا يفهم مما قدمناه أن قوافل الحجاج الفقراء وحدها هي التي ساهمت على نشر المذهب المالكي في نيجيريا لأن قوافل الأغنياء ساهمت في ذلك أيضا وان اختلفت الكيفية فقد سبق لنا أن تحدثنا مثلا عن رحلة الحج الرائعة التي قام بها منسى موسى وماخلفته من الآثار العميقة في كافة أرجاء العالم الاسلامي فضلا عن نيجيريا نفسها[281]. ولقد ظل الحج يؤدي دوره في توطيد أركان المذهب المالكي في نيجيريا بعدة وسائل حتى بلغ ذلك ذروته في القرن التاسع عشر حين قامت دولة اسلامية في نيجيريا فصار رؤساء بعثات الحج لايمرون بشمال نيجيريا حتى يقيموا في سوكوتو عند أمير المسلمين الشيخ عثمان بن فودى وآله[282].

وإلى جانب كل ماتقدم من هجرات الوناغرة والبرناويين والفلاني ورحلة الحج وغير ذلك فإن هناك هجرات أخرى تركت أثرا طيبا في ميدان نشر المذهب المالكي في نيجيريا. من ذلك ما أشار إليه توماس أرنولد في قوله: «وفي القرن الرابع عشر الميلادي هاجر العرب التنجور من تونس إلى الجنوب واخترقوا البرنو».[283] ومنها ما أشار إليه محمود شاكر في قوله: «وكذلك في القرن الرابع عشر نقل عمر بن ادريس قاعدة بلاده إلى غرب بحيرة تشاد في منطقة برنو وعمل للاسلام هناك»[284]. بل سبق أن ذكرنا أن لاسبيل إلى إحصاء الهجرات التيَ اتجهت إلى هذه المنطقة. ولقد ظلت الهجرات تتدفق على نيجيريا من مختلف الأقطار بما فيها المغرب الأقصى حتى كان من أبرز نتائج ذلك أنه لم يأت القرن الخامس عشر الميلادي إلا وقد صارت اللغة العربية اللغة الرسمية في البلاد إلى جانب المظاهر الأخرى من دلائل رسوخ الاسلام والمذهب المالكي في هذه الديار. يقول عبد الفتاح الغنيمي «لم ينته القرن الخامس عشر الميلادي إلا وكان

(281) راجع ص 194 ـــ 201 من هذه المجلة.

(282) عثمان دان فوديو ـــ للحاج شيخ شاعرى ـــ ص 57-58.

(283) الدعوة إلى الاسلام ـــ لتوماس أرنولد ـــ ص 359.

(284) نيجيريا ـــ لمحمود شاكر ـــ ص 19.

الاسلام له صولة وجولة في إمارة كانو ذلك أن شعب هذه الامارة كان قد أصبح يعيش حياة اسلامية بحته بل ان شعبها أسهم بدور هام في مجال الثقافة الاسلامية والعربية وظهرت مدينة كانو كمركز من مراكز الدعوة الاسلامية في غرب أفريقيا يتبادل علماؤها مع علماء تمبكتو وجنى وغيرهما الزيارات الثقافية والعلمية وقد ساعدت الهجرات العربية والبربرية على سرعة انتشار الاسلام على نطاق واسع وظهوره بهذه الصورة العلمية وذلك بعد أن تدفق على كانو الكثير من العلماء والفقهاء ورجال الدين وقد شارك علماء المغرب في نشر الاسلام وتعميق الحياة العلمية والاسلامية ... ولقد اقتفى العلماء أثر التجار حيث القوافل التجارية، يلاحظون أهمية كانو كمركز تجاري هام في غربي القارة، فأخذوا يذهبون إليها من المغرب الأقصى بل من مصر والقيروان وفاس وغيرها ... واتخذت هذه الامارة مظهرا اسلاميا واضح المعالم منذ أعلن أول ملوكها الاسلام وتمثل ذلك في خروج ملوكها للحج ثم اتصالها بالقوى الاسلامية المعاصرة وكذلك اتخذت هذه الامارة اللغة العربية لغة رسمية لها وسيلة للأداء والتعبير الرسمي حيث صارت لغة التجارة والمعاملات والمراسلات الرسمية والمراسيم».[285]

ولقد ظل أمر اللغة العربية يستفحل في البلاد من جراء كل ذلك حتى تعدد فحول الشعراء من بين النيجيريين أنفسهم فضلا عن تعدد حفاظ المذهب المالكي. يقول الشيخ آدم: «لقد ترك علماؤنا من الشعر ما لايستهان به إذا عرض على ضوء النقد الأدبي بحيث لو اطلع عليه العربي القح أو الناقد النزيه لما وسعه إلا أن يطأطيء رأسه اعجابا بالقريحة التي جادت به»[286].

وظلت الهجرة تتدفق على الديار النيجيرية بما في ذلك هجرة كبار الفقهاء وحفاظ المذهب المالكي حتى بلغت ذروتها بتدفق عدد ضخم من حفاظ المذهب المالكي إلى هذه البلاد واقامتهم فيها اقامة دائمة واستقرارهم فيها بصفة نهائية وذلك بعد الأحداث التي أصابت تمبكتو وجنى كما تقدم.[287] وفي ذلك يقول عبد الفتاح الغنيمي: «ويذكر عبد الرحمان السعدي في كتابه تاريخ السودان أن

(285) مجلة الفيصل، السنة 3 العدد 34 ربيع الثاني 1400 هـ مارس 1980 ص 117.

(286) مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية — للشيخ آدم عبد الله الألورى ص 9.

(287) راجع ص 213 — 216 من هذه المجلة.

علماء من تمبكتو وجنى قد رحلوا إلى امارة كانو في ظل نفوذ سنغاي فقاموا هناك يفقهون الناس في الدين وينشرون الدين الاسلامي فالحاج أحمد التمبكتي عند عودته من الحج كان يعلم الفقه كما زارها مخلوف بن على واخر اسمه محمد بن أحمد كذلك رحل إليها فريق من الفقهاء من سنغاي يزيدون على الأربعين رجلا وأنشأوا مسجدا كبيرا بها في حي بيرني وإلا .. وشاركوا في ازدهار كانو وجاء علماء من واحة توات وأشهرهم الفقيه التواتي الشهير محمد بن عبد الكريم المنيلي وكذلك قام علماء كثيرون من أهل برنو بجهود مماثلة في الفترة (1438 - 1490) ومضت الحركة العلمية والثقافية في البلاد .. وقد ساعد هؤلاء العلماء على ظهور كانو بمظهر حضاري اسلامي قوى وذلك لأن هؤلاء العلماء قد أقاموا اقامة دائمة بالمدينة وعكفوا على تعليم الناس فقه الامام مالك ومن هنا فقد بدأت كانو تزداد تألقا وسعة في النفوذ عن ذي قبل وخصوصا بعد سقوط دولة سنغاي أمام الغزو المراكشي عام 1591 م واضطر كثير من علماء تمبكتو وجنى إلى الهجرة صوب الشرق التماسا للأمن فكانت كانو مستقرهم. ومن هنا فإنه يمكن القول ان مدينة كانو قد استفادت من كل الدول المحيطة بها: برنو، سنغاي، وغيرهما من الدول الاسلامية التي وفد علماؤها إليها ولذا فقد لعبت دورا بارزا وهاما في ميدان الثقافة العربية الاسلامية لايقل عن الدور الذي لعبته من قبل مدينة تمبكتو».[288]

وقد استمرت مدينة كانو تلعب هذا الدور إلى اليوم. جاء في مجلة الوعي الاسلامي مانصه: «وقد اشتهر بالعلم والحضارة مدن كثيرة وكبيرة منها كانو منذ القرن السادس عشر وبخاصة بعد الأحداث التي أصابت تمبكتو ولازالت مدينة كانو إلى اليوم أكبر وأهم مراكز الثقافة الاسلامية والعربية في غرب أفريقيا».[289] وكل ذلك يوضح لنا الدور العظيم الذي قامت به الهجرة في تعميق جذور الفقه المالكي في نيجيريا حتى صارت المدن النيجيرية حصنا حصينا للمذهب المالكي ومعقلا أمينا لحفاظه.

---

(288) مجلة الفيصل، السنة 3 العدد 34 ربيع الثاني 1400 هـ مارس 1980 ص 117، وراجع كذلك: أصل الاسلام التاريخي للدكتور موسى عبدول ج 5 ص 120، مجلة الأزهر السنة 33 ج 6 جمادى الآخرة 1381 هـ نوفمبر 1961 ص 694-695.

(289) مجلة الوعي الاسلامي، السنة 5 العدد 59 ذي القعدة 1389 هـ ديسمبر 1989 ص 65.

أعلام المهاجرين إلى نيجيريا

ومن أشهر العلماء الذين رحلوا إلى نيجيريا: ابن بطوطة وليو الأفريقي أو حسن الوزان الذان سبق الحديث عنهما[290] ومنهم الحافظ مخلوف بن علي بن صالح البلبالى الذي كان في كانو وكاشنة وغيرهما من المدن النيجيرية «وأقرأ أهلها وجرى له هناك نوازل وأبحاث مع الفقيه العاقب الأنصمنى»[291] وقد أفاد أهل نيجيريا كثيرا وكانت وفاته سنة 940 هـ»[292].

ومن الأعلام المهاجرين كذلك: العاقب الأنصمنى المشار إليه أعلاه والذي وقع بينه وبين الحافظ البلبالي نزاع طويل في المسائل الفقهية وهو العاقب بن عبد الله الأنصمنى المسوقي من أهل أكدس «فقيه نبيه ذكي الفقه حاد الذهن .. كان حيا قريبا من الخمسين وتسعمائة».[293] ومنهم «الشيخ أحمد بن محمد أقيت الصنهاجي حج ولقى الامام جلال السيوطي وخالدا الأزهري ومكث مدة بمدينة كانو وكتسينة للتدريس وتوفي سنة 943 هـ»[294] ومنهم الشيخ محمد بن أحمد الذي «تولى قضاء كاتسينة عام 1520»[295].

ولاسبيل إلى احصاء فطاحل العلماء الذين دخلوا نيجيريا وساهموا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في نشر المذهب المالكي وتوطيد أركانه فيها. وقد تعاون هؤلاء الأعلام جميعا على رفع مستوى العلم في هذه البلاد حتى أمكن لنيجيريا أن تجتذب أمثال الحافظ جلال الدين السيوطي الذي ـــ وإن لم يكن مالكي المذهب ـــ ساهم بدوره في تكوين النيجيريين مساهمة لايصح اغفالها هنا لما انطوت عليه من أبعاد أدت إلى تعمق النيجيريين في فهم أسرار القرآن الكريم كما أدت إلى استقامة أمرائهم إذ أقام الحافظ السيوطي في هذه البلاد بضع سنين

---

(290) راجع ذلك ابتداء من ص 185 من هذه المجلة.

(291) تطريز الديباج ص 344 (على هامش الديباج ط. السعادة بمصر ط. 1 سنة 1329 هـ).

(292) راجع شجرة النور ص 278.

(293) تطريز الديباج ص 217-218.

(294) مجلة الوعي الاسلامي، العدد 59 السنة ٥ ذي القعدة 1389 هـ ديسمبر 1969 ص 65 وكذلك: مجلة الفيصل السنة 3 العدد ربيع الثاني 1400 هـ مارس 1980 ص 117.

(295) مجلة الفيصل المذكور ص 118، مجلة الأزهر السنة 33 ج 6 نوفمبر 1961 م ص 694.

كرس حياته خلالها على تبصير النيجيريين في أسرار الكتاب العزيز وتقويم اعوجاج أمرائهم[296]. وقد أشار السيوطي إلى ذلك في ترجمته لنفسه في كتابه حسن المحاضرة حين تحدث عن زيارته لبلاد التكرور ضمن زياراته للمغرب ورحلاته في العالم الاسلامي قبل استقراره في القاهرة.[297] وبلاد التكرور كما أوضح الشيخ آدم: «عبارة عما وراء الصحراء الكبرى جنوبا إلى حدود النيجر وتشمل نيجيريا الانجليزية والفرنسية والداهومى وفلتا العليا وغانا»[298] وقد أقام الحافظ السيوطي في مدينة كانو بضع سنين. يقول محمد جلال عباس: «إن جلال الدين السيوطي العالم المصري المشهور قد زار كانو وأقام فيها بضع سنين يعلم القرآن. ويفقه في الدين وعاد إلى مصر عام 876 هـ»[299] وقريب من ذلك قول الشيخ آدم: «يقال انه مكث في كاشنة وأكدز وكانو ثم رجع إلى مصر وتصدر للتدريس بها من 876 هـ حتى توفي 911 هـ».[300] ويؤكد عبد الفتاح الغنيمي أنه أقام في كاشنة حتى كان صديقا شخصيا لأميرها، يقول: «يذكر هنرس بارت في كتابه رحلات في شمال ووسط أفريقيا أن هناك علاقات وثيقة قد قامت بين العالم الاسلامي الشيخ عبد الرحمان بن أبي بكر جلال الدين السيوطي وبين أمير كتسينا ... والواقع أن الشيخ السيوطي كان يتمتع بمكانة عالية ورفيعة في غرب أفريقيا عامة وقد زار بلاد الهوسا وخاصة مدينة كتسينا بصفة خاصة ودرس بها ... وقد كان الشيخ السيوطي صديقا شخصيا لساركن كتسينا وهو الملك ابراهيم ماجى بن ابرة كومايوه ويقال انه ألف له كتابا سماه رسالة الملوك وأهداه لساركن ابراهيم».[301]

والرسالة التي أشار إليها الأستاذ عبد الفتاح المذكور وجهها السيوطي إلى ملوك وأمراء بلاد التكرور عموما وإلى سلطان كاشنة خصوصا وقد سجلها الشيخ عثمان بن فودى في كتابه تنبيه الاخوان على أحوال أهل السودان ونقلها

---

(296) مجلة الوعي الاسلامي المذكورة أعلاه ص 64.

(297) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ــ للحافظ السيوطي ــ ج 1 ص 141 (ط. الشرفية).

(298) الامام المغيلى وآثاره ... في نيجيريا ــ للشيخ آدم عبد الله الألورى ــ ص 17 تعليقا.

(299) مجلة الأزهر، السنة 33 ج 6 جمادى الآخرة 1381 نوفمبر 1961 ص 695.

(300) الاسلام في نيجيريا للشيخ آدم ص 89، وراجع كذلك الامام المغيلي لنفس المؤلف ص 16.

(301) مجلة الفيصل، السنة 3 العدد 34 ربيع الثاني 1400 هـ مارس 1980 م ص 118.

الشيخ آدم في كتابه الاسلام في نيجيريا وفي كتابه الامام المغيلي وآثاره. ومقصود السيوطي من هذه الرسالة تقويم اعوجاج بعض الأمراء في نيجيريا خصوصا وفي بلاد التكرور عموما. فكان مما جاء فيها مثلا قوله: «من الفقير عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي إلى الملوك والسلاطين في بلاد التكرور عموما وإلى الملك الزاهد محمد بن مطفو صاحب أكدز ... والملك ابراهيم صاحب كشنة خصوصا: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد فأحمد الله الذي لا إله إلا هو ... ثم أوصيكم بتقوى الله عز وجل فإنها رأس الأمر وسنامه ... واحتكموا على العدل بين الرعية ... وقد بلغني من أحدكم أنه يذكر له الحكم الشرعي ... ويحول بينه وبين صاحب الحق ... ويرد ما حكم به الشارع ... أفلا يخشى أحدكم من ملك الملوك ... أيغتر أحدكم بملكه الذي هو كقطرة ويريد أن يلغى حكم الله؟ ... وبلغني من أهل غوبر أن منهم من إذا مرض ذبح عبدا له أو أمة ويزعم أن ذلك يفديه من الموت، فما أكفره فيما صنعه وفيما زعمه ... وليس هو يبلغ بذلك مناه وسؤله ولو أعتقه لكان أقرب إلى الفداء ...»[302]

وهكذا نرى أن الحافظ السيوطي ساهم في تعميق فهم النيجيريين للقرآن الكريم وذلك بتدريسهم أسرار هذا الكتاب العزيز، كما ساهم في تقويم اعوجاج أمرائهم بمحاربته للبدع والانحرافات بين هؤلاء الأمراء. ولاشك أن في إقامة مثل الحافظ السيوطي في نيجيريا ما يدل دلالة واضحة على رسوخ قدم العلم في هذه البلاد.

ولكن رغم أهمية الدور الذي قام به الحافظ السيوطي وغيره من الأعلام، فإن هناك عالما قام بدور تتضاءل أمامه الأدوار. وذلك العالم هو الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي[303] «وهو منسوب إلى قبيلة مغيلة التي هي احدى قبائل البربر في المغرب».[304] و«يعرف في بعض الأوقات بالبغدادي رغم أنه مواطن من تلمسان».[305] وكان المغيلي من كبار فقهاء المذهب المالكي وممن اجتمعت

(302) الاسلام في نيجيريا للشيخ آدم ص 85-88، الامام المغيلي لنفس المؤلف ص 17-21.

(303) راجع الامام المغيلي وآثاره في الحكومة الاسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا ص 31.

(304) نفس المصدر ـــ لمؤلفه الشيخ آدم عبد الله الألورى ـــ ص 11 (ط. الحلبى بمصر ط. 1)

(305) الممالك الاسلامية في غرب أفريقيا ـــ للدكتور زاهر رياض ـــ ص 142.

فيه من المزايا ما تفرقت في غيره من العلماء: الفقه البارع والعلم الراسخ في فنون كثيرة مع غزارة الانتاج والورع الصادق والتصوف والصرامة في الحق والبغض الشديد لليهود والحماسة المنقطعة النظير لنشر الاسلام والمذهب المالكي وهذه في نفس الوقت هي مجموعة الصفات التي سيرثها النيجيريون عنه.

يقول أحمد بابا في ترجمته: انه «خاتمة المحققين الامام العلامة الفهامة القدوة الصالح السني أحد الأذكياء ممن له بسطة في الفهم والتقدم، متمكن المحبة في السنة وبغض أعداء الدين»(306). ويقول «وكان رحمه الله مقداما على الأمور جسورا جرىء القلب فصيح اللسان محبا في السنة جدليا نظارا محققا له تآليف منها البدر المنير في علوم التفسير ومصباح الأرواح في أصول الفلاح ... وشرح مختصر خليل ... وحاشية عليه ... وشرح بيوع الآجال ... وتأليف في المنهيات ومختصر تلخيص المفتاح وشرحه ومفتاح النظر في علم الحديث فيه أبحاث مع النووى في تقريبه وشرح الجمل في المنطق ومقدمة فيه ومنظومة فيه سماها منح الوهاب وثلاث شروح عليها ... وله أيضا تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين وشرح خطبة المختصر ومقدمة في العربية وكتاب الفتح المبين وفهرسة مروياته وعدة قصائد ... ووقع له مراسلة مع الجلال السيوطي في علم المنطق»(307).

وإلى جانب المراسلة التي أشار إليها أحمد بابا والتي وقعت بين المغيلي والسيوطي جرت بين الرجلين مناظرة في علم المنطق وكان ذلك في نيجيريا. يقول الشيخ آدم ان الحافظ جلال الدين السيوطي اجتمع مع المغيلي «وجرى بينهما مناظرة في تحريم المنطق من جانب السيوطي وفي تحليله من جانب المغيلي».(308) ويقول: «لقد انتشر علم المنطق في المغرب العربي وبالتالي في السودان الغربي على حين انه ظل محصورا في دائرة ضيقة في مصر والشام ونحوهما من بلاد المشرق من حيث ظل الفقهاء والمحدثون أمثال ابن الصلاح والنووى وابن تيمية في الشام يطاردونه من حظيرة الاسلام. ثم جاء الحافظ السيوطي يتبع آثارهم في تحريم المنطق فألف عدة كتب في تحريم الاشتغال به ... وكان المغيلي

(306) تطريز الديباج ص 330.

(307) تطريز الديباج ص 331-332.

(308) الاسلام في نيجيريا ص 89.

من أكبر أنصار المنطق وناشريه في بلاد السودان وكان يدرس للطلاب أرجوزه المسماة منح الوهاب فأنكر عليه الامام السيوطي وأخرج للناس مؤلفاته في تحريمه».[309] فكان من ذلك أن جرى بين العالمين المناظرة المذكورة.

وهذا اللقاء والمناظرة إنما وقع في بلد من البلاد التي تعرف اليوم باسم نيجيريا كما ذكرت وهذا ما يرجحه الشيخ آدم[310] ذلك أن الامام المغيلي قضى معظم حياته في نيجيريا يرسخ في أهلها فقه عالم المدينة وبغض أعداء الله اليهود، وتولى قضاء كاشنة وقد ذكره السيوطي بالاسم في رسالته السالفة الذكر والموجهة إلى سلطان كاشنة وعامة سلاطين التكرور، وذلك في مثال ضربه لما كان يستنكره من هؤلاء السلاطين من ردهم بعض الأحكام الشرعية. يقول الحافظ السيوطي في رسالته: «ومما ينص عليكم بالخصوص قضية الحاج محمد الترجمان مع عبده الذي حاد عن الحق وحكم عليه القاضي محمد عبد الكريم بأنه باق في رقه وأمر بأن يسلم إلى مستحقه فأعنتم بعد على الباطل وجعلتم حكم الشرع كالعاطل فتوبوا إلى الله من هذه الموبقة».[311]

يتضح لنا من كل هذه الأحداث والوقائع جلال قدر الذين ساهموا في تكوين النيجيريين وتفقيهم، والمستوى الرفيع الذي بلغه العلم في نيجيريا بفضل هؤلاء الأعلام من المهاجرين. وقد اختلف الناس في السبب الحقيقي الذي جعل الامام المغيلي يهاجر إلى نيجيريا ويقيم فيها ليؤثر في أهلها ذلك التأثير العظيم. فقال بعضهم أن أسكيا محمد سلطان سنغاي هو الذي استقدمه إلى بلاده ليستعين به على إقامة دولته الاسلامية في السودان الغربي وبعد ذلك انتقل المغيلي إلي نيجيريا التي كانت جزءا من امبراطورية سنغاي. وسبق أن نقلنا هذاالرأي عن الدكتور عبدول عند الحديث عن أسكيا محمد[312]. ويرى الدكتور زاهر رياض أنه أخرج من توات اخراجا بسبب أنه كان فيها داعيا متصلبا كتصلب عبد الله بن ياسين في الدعوة حتى انتهى به الأمر إلى ذبح الجالية اليهودية، إلا أن دعوة

(309) الامام المغيلي وآثاره للشيخ آدم ص 21-22.

(310) نفس المصدر ص 16.

(311) نفس المصدر ص 20-21، الاسلام في نيجيريا 88.

(312) راجع ص 211 ـــ من هذه المجلة.

المغيلي لم تلق من القبول «بين شعوب الصحراء كتلك التي قام بها ابن ياسين منذ خمسة قرون فأخرج من توات وهرب إلى الهوسا».[313] وقريب من ذلك قول محمد جلال عباس: «اشتهر المغيلي بين قبائل الطوارق كداعية للاسلام ولا يزال اسمه يلقى بينهم احتراما وتقديسا ولكن الفتنة التي أحدثها اليهود وأدت إلى قتل الكثير منهم في توات وغيرها من واحات الصحراء الكبرى واستغلال اليهود لها باتهامه بتدبيرها جعله يؤثر الهجرة إلى بلاد الهوسا».[314]

وخلاصة الفتنة التي أشار إليها هؤلاء العلماء كما بينها أحمد بابا في التطريز: أن اليهود تسللوا إلى قرية من قرى المسلمين في توات وبنوا فيها كنيسة فلم يرض المغيلي بذلك لما سبق أن ذكرناه من شدة بغضه لليهود وعامة أعداء الله ولأنه كان يرى أن لا مبرر لبناء كنيسة في بلد اسلامي جميع أهله من المسلمين. وبناء على كل ذلك قام الامام المغيلي على هؤلاء اليهود «وألزمهم الذل بل قتلهم وهدم كنائسهم ونازعه في ذلك الفقيه عبد الله العصنونى قاضي توات»[315] بدعوى التسامح الديني بين المسلمين واليهود وسائر أهل الكتاب فاضطر المغيلي إلى جمع الأثار وآراء الفقهاء المشهود لهم بالفضل في زمانه وفي محيطه ليتقوى بها على طريق الاجماع، فراسل «علماء فاس وتونس وتلمسان فكتب في ذلك الحافظ التنسي كتابة مطولة ... بصواب رأى صاحب الترجمة ووافقه عليها الامام السنوسي ... وممن أجاب في المسألة الرصاع مفتى تونس وأبو مهدى الماواس مفتى فاس وابن زكرى مفتى تلمسان ... وحين وصل جواب التنسى ومعه كلام السنوسى لتوات أمر صاحب الترجمة جماعته فلبسوا آلات الحرب وقصدوا كنائسهم وأمرهم بقتل من عارضهم دونها فهدموها و لم يتناطح فيه عنزان ثم قال لهم من قتل يهوديا فله عليه سبع مثاقيل وجرى في ذلك أمور».[316] وقد خرج الامام المغيلي بعد ذلك إلى السودان الغربي وانتهى إلى نيجيريا فقال هؤلاء العلماء انه إنما خرج بسبب هذه الفتنة مع أن الامام هو الذي ألزم اليهود الذل ولذلك لايبدو أن الشيخ آدم يرتضى هذا الرأي إذ يذهب إلى أن سبب هجرته

(313) الممالك الاسلامية لزاهر ص 142.

(314) مجلة الأزهر السنة 33 ج 6 نوفمبر 1961 ص 695.

(315) تطريز الديباج ص 330-331.

(316) تطريز الديباج ص 331.

أنه سمع بقوة الاسلام في السودان الغربي وشدة تمسك السودانيين بالقرآن الكريم ومحبة سلاطينهم للعلم والعلماء فتوجه إلى هذه البلاد «ليتمكن من التأثير على تلك الناحية ولينشر فيها الدين والعلم».[317] وقيل غير ذلك في تعليل هذه الهجرة.

ومهما يكن من أمر ومهما كانت الأسباب التي أدت إلى هجرة الامام المغيلي، فإن الذي لايختلف فيه اثنان هو أنه انتهى إلى نيجيريا وأقام فيها «وتزوج بها وخلف ثلاثة أولاد هم أحمد وعيسى والسيد الأبيض وأحفادهم باقون إلى اليوم».[318] وقد خلف الامام المغيلي في نيجيريا من الآثار الحميدة ما لاسبيل لغيره من المهاجرين أن يدعى لنفسه بمثله. يقول الشيخ آدم: «لقد دخل عدد من أعلام المغاربة إلى بلاد السودان منذ فجر الاسلام وعملوا فيها على نشر العلم والأدب والثقافة حتى كثر فيها العلماء وبلغوا الرقم الخيالي الذي ذكره السعدي حيث قال: ان ملك مدينة جنى قد جمع يوم اسلامه أربعة آلاف ومائتين من العلماء والفقهاء ليعلن اسلامه أمامهم سنة 400 هـ ولم يخلد التاريخ أثرا لعالم عربي، غربي أو شرقي مثل ما خلده للامام المغيلي في غرب أفريقيا عموما وفي نيجيريا خصوصا ... لقد تأثر بالمغيلي جميع العلماء الذي اجتمعوا به أو الذين أخذوا عنه العلوم أو أخذوا عن تلاميذه حتى امتازوا عند علمائنا بمعاصري المغيلي وامتاز عصرهم بعصر المغيلي ولقد احتفظوا برسائله وفتاواه ومؤلفاته وحفظوها في صدورهم وخزنوها في مكتباتهم حتى توارثها خلفهم عن سلفها».[319] وكان الشيخ عثمان بن فودى من جملة الأعلام النيجيريين الذين تأثروا بالمغيلي تأثرا عميقا. يقول الدكتور موسى عبدول: «كان لأفكار المغيلي تأثير مباشر وقوى على الشيخ عثمان دان فوديو الذي أقام بعد ذلك دولة اسلامية شملت جميع امارات الهوسا»[320].

فالامام المغيلي على هذا الأساس هو الذي مهد للدولة الاسلامية التي أقامها حفاظ المذهب المالكي في نيجيريا في القرن التاسع عشر بزعامة الشيخ عثمان بن

(317) الامام المغيلي وآثاره ... في نيجيريا — للشيخ آدم — ص 31.

(318) نفس المصدر ص 39.

(319) نفس المصدر ص 31-32.

(320) أصل الاسلام التاريخي — للدكتور موسى عبدول — ج 5 ص 112.

فودى كما سنرى وهو الذي ألهب في قلوب المسلمين في نيجيريا بغض اليهود أينما وجدوا ولا يزال هذا البغض راسخا في قلوبهم إلى اليوم رغم محاولات الاستعمار اليائسة لاقتلاعه. وكان الامام المغيلي إلى جانب كل ماتقدم «عالما صوفيا على الطريقة القادرية ويقال انه أول من نشر هذه الطريقة في غرب أفريقيا».[321] والتصوف السنى مع التشبث بالمذهب المالكي ميزة النيجيريين إلى اليوم بل ان ذلك القاسم المشترك بين المغرب ونيجيريا وسائر بلدان غرب أفريقيا[322] وسنرى فيما بعد دور التصوف والمتصوفة في نشر المذهب المالكي في نيجيريا[323].

فلا سبيل إلى إحصاء آثار المغيلي في نيجيريا لتعدد أوجه نشاطه: فهو داعية مقتدر أسلم على يديه ما لايحصى كثرة، وهو مدرس الفقه والأصول رسخ في أهل نيجيريا فقه امام دار الهجرة ونشر مذهبه، وهو قاض وامام وغير ذلك. وبالنظر إلى كل ذلك اتسع نطاق تأثيره في نيجيريا وعمق. ولم يقتصر أثره على عوام الناس في نيجيريا بل امتد إلى الأمراء إلى جانب ما سبق من تأثر جميع علماء نيجيريا به. ومن أبرز أمثلة توضح مدى تأثيره على الأمراء النيجريين: الوصايا التي كتبها للسلطان محمد رنفا والتأثير العظيم الذي خلفه فيه حتى كان هذا السلطان أول من أقام في نيجيريا دولة اسلامية أساسها الفقه المالكي ولو أن تلك الدولة لم تشمل جميع امارات الهوسا. وقد أشار أحمد بابا إلى هذه الوصايا فقال: اجتمع الامام المغيلي «بصاحب كانو واستفاد عليه وكتب رسالة في أمور السلطنة يحضه على اتباع الشرع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقرر لهم أحكام الشرع وقواعده»[324]. ويقول الشيخ آدم: «وكتب المغيلي للسلطان محمد رنفا وصية فيما يجوز للحكام وهي في ايجازها وشمولها أشبه شيء بوصية سيدنا عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري في شؤون القضاء ... ثم كتب للسلطان المذكور مجموعة أخرى في شؤون الامارة وتنظيم الدولة والمجموعة أشبه شيء بالأحكام السلطانية للماوردى المتوفي سنة 450 هـ ... ولكن المغيلي يمتاز في

(321) الامام المغيلي وآثاره ... في نيجيريا — للشيخ آدم — ص 12.

(322) راجع العلم السياسي، السنة الأولى العدد الثاني غشت 1982 م ص 3.

(323) راجع دور التصوف ابتداء من ص 259 من هذه المجلة.

(324) تطريز الديباج ص 331.

مجموعته هذه بايجاز متن غير خلل وتفصيل من غير ملل بأسلوب أدبي جذاب يغلب عليه السجع المطاوع المنجسم ... مما يترجم عن شخصية المغيلي الأدبية ورسوخ قدمه ونضوج علمه وبلورة فهمه لأصول الشريعة الاسلامية وتمكنه من أصول المذهب المالكي»[325] وسنتعرض لمضمون هذه الوصايا والرسائل عند الحديث عن اخراج الفقه المالكي من حيز الأقوال إلى حيز الأفعال في الدولة الاسلامية في نيجيريا. وقد أقام المغيلى في نيجيريا قاضيا وإماما ومدرسا يشرف بنفسه على حسن تنفيذ مقتضيات وصاياه حتى قامت في نيجيريا دولة مذهبية مالكية سيتوسع نطاقها على يد الشيخ عثمان بن فودى. وبعد أن تم الامام المغيلي تحقيق أهدافه السامية في نيجيريا رجع إلى توات وبها توفي سنة 909 هـ.[326] وإلى يومنا هذا لاتزال نسخ من أعماله تكتشف في نيجيريا.[327] من مجموع حديثنا عن الهجرة الفردية والجماعية يتضح لنا أن الهجرة لعبت أعظم الادوار في نشر المذهب المالكي في نيجيريا. فقد تحولت كثير من المدن النيجيرية في شمال نيجيريا بسببها الى منازات يشع منها الفقه المالكي الى سائر أنحاء البلاد التي لم يمتد اليها تأثير هؤلاء المهاجرين بشكل عميق.

(325) الامام المغيلى وآثاره ص 39-40.

(326) راجع تطريز الديباج ص 331.

(327) الممالك الاسلامية لزاهر ص 142.

المبحث الثامن

دور المعلميــن

عندما تحدثنا عن دور التجار في نشر المذهب المالكي في نيجيريا، نقلنا عن الأستاذ بووا أن التجار من الجزيرة العربية وكذلك التجار المغاربة من شمال إفريقيا الذين كانوا يعملون على نشر الاسلام إلى جانب عملهم في التجارة، أضافوا إلى كل ذلك فتح المدارس لتمكين الناس من قراءة القرآن باللغة العربية.[328] وعندما تحدثنا عن المرابطين نقلنا عن الدكتور حسن ابراهيم حسن أن الدولة المرابطية لم تكن قائمة على المذهب المالكي فحسب بل إنها ما قامت إلا وفق خطة مرسومة لنصرة هذا المذهب وذلك بعد أن سئم الناس من التطاحن المذهبي في المغرب.[329] وتقدم أيضا أن صاحب المذهب رضى الله عنه كان إمام العلماء، مبالغا في توقير العلم فكان من الضروري لدولة قامت لنصرة مذهبه أن تكون دولة قائمة على العلم. وفعلا «كان أساس دعوة المرابطين العلم وعليه قامت دولتهم».[330] فكان رجالات هذه الدولة عبارة عن كبار فقهاء المذهب المالكي[331]. فكان لابد وأن يجمع المرابطون بين الجهاد وبين نشر العلم[332] حتى أن المعلمين في بعض المناطق في غرب أفريقيا يسمون بالمرابطين إلى اليوم[333] اشارة إلى الدور العظيم الذي قام به المرابطون في سبيل نشر العلم.

---

(328) راجع ص 170 — 171 من هذه المجلة.

(329) راجع ص 183 من هذه المجلة.

(330) النبوغ المغربي ج 1 ص 75.

(331) راجع تاريخ الاسلام — للدكتور حسن ابراهيم حسن — ج 4 ص 285.

(332) راجع مجلة الأزهر، السنة 34 ج 3 أكتوبر 1962 م ص 295.

(333) راجع الدعوة إلى الاسلام — لتوماس أرنولد — ص 392.

وعندما تحدثنا عن المهاجرين والدور العظيم الذي قاموا به اتضح لنا أن أساس كل ذلك إنما هو العلم. فالظاهر من مجموع ذلك أن أساس تأثير الطوائف التي تحثنا عنها الى الان هو العلم. وأننا بذلك قد تحدثنا عن دور العلم في نشر المذهب المالكي في نيجيريا. ولا نعتزم إعادة شيء من ذلك هنا ولا صياغة مضمونه في قالب جديد.

ولكن يساورنا شعور من كل ما تقدم أن أبرز الأدوار إنما ما قام به غير النيجيريين من التجار والمرابطين والممالك السودانية القديمة والمهاجرين. لذلك نريد أن ننظر إلى الموضوع من زاوية أخرى تمكن النيجيريون من خلالها من أن يستلموا الراية من أيدي غير النيجيريين ويشقوا بها الطريق وسط إخوانهم الذين لم يكونوا قد تفتحت أعينهم على هذا النور حتى لعبوا في ذلك أعظم الأدوار وأتموا بأنفسهم الأعمال التي كان اخوانهم غير النيجيريين قد بدأوا بها إلى أن تم استئصال شأفة الوثنية من تراب نيجيريا الشمالية واقرار المذهب المالكي في هذه المناطق بصفة شاملة ونهائية.

لقد كان فتح المدارس أول خطوة مباركة في هذا الاتجاه. لقد سبق أن ذكرنا أن فتح المدارس كان عملا رائدا لايمكن المبالغة في تقدير أهميته في سبيل نشر المذهب المالكي في نيجيريا وذكرنا أن ذلك فتح الباب أمام الاسلام والمذهب المالكي لكي يتغلغلا إلى صفوف الوزراء والملوك.[334] ونريد أن نزيد توضيحا هنا لأنه هو الذي سيبين لنا كيف تمكن النيجيريون من أن يتولوا بأنفسهم عملية نشر هذا المذهب بين اخوانهم حتى استطاعوا في آخر المطاف أن يقيموا لمذهبهم المالكي في نيجيريا دولة عز وفخار.

ففي ذلك الوقت لم تكن هناك مدارس غيرها، وهدف أصحابها نشر الاسلام والمذهب المالكي الذي كانوا يدينون بتعاليمه، فلا يتخرج طالب من هذه المدارس إلا مسلما ورعا متشبثا بالمذهب المالكي، وبسهولة يتولى أعلى المناصب في الدولة إذ لامتعلم غيره، والمتعلم وحده هو القادر على تسجيل القرارات والأحداث، المهام التي كان السلاطين السودانيون يستعينون بالأجانب في القيام

(334) راجع ص 170 — 172 من هذه المجلة.

بها. والمتعلم وحده هو القادر كذلك على القيام بالمراسلات باسم الملك مع الملوك الآخرين ومع عمال الملك في الأقاليم النائية. وبذلك يصبح المواطنون المسلمون المالكيون بعد فترة كتابا للملوك ومترجمين لهم ومستشارين حتى ينتهوا إلى تقليد مناصب الوزارة لعدم وجود خير منهم لا في العلم ولا في الأخلاق. فيزداد احترام الناس للاسلام والمسلمين حتى يعلن الملك نفسه اسلامه. وحين يفعل ذلك يتوقع من رعاياه أن يحذوا حذوه مثل ما تقدم من ملك زاكسي الذي أسلم فاتبعه في ذلك معظم رعاياه[335] بل تقدم أيضا أن سلطان كانو أسلم فلم يكتف بمجرد التوقع بل أصدر أمرا يلزم الجميع بإقامة الصلاة فأدى ذلك إلى صدام بين المسلمين والوثنيين[336].

ومادام العلم هو الذي رفع شأن المسلمين إلى هذا الحد من الاحترام والتقدير كان من الطبيعي أن يحظى المعلمون بأوفى نصيب من ذلك حتى في الأوساط الوثنية. وهكذا صار «مالم» أو «ألفا»[337] يحظى باحترام لايحلم بمثله إلا السركي أو الأوبا.[338] يقول توماس أرنولد: «هؤلاء المعلمون الدينيون أو المرابطون أو الألوفا كما يطلق عليهم حسب اختلاف أسمائهم يحظون بأوفى نصيب من التقدير. ففي بعض قبائل أفريقية الغربية تضم كل قرية دارا لاستقبالهم ويعاملون بأعظم مظاهر الاحترام والتقدير. ففي دار فور يحتلون أعظم مكانة بعد هؤلاء الذين يشغلون مناصب الحكومة كما يحتلون بين المناديجو مكانة أعظم شأنا وينالون احتراما يلي احترام الملك ... ويبجلهم الناس مثل هذا التبجيل لا في البلاد الاسلامية وحدها بل في القرى الوثنية التي يؤسسون فيها مدارسهم حيث يحترمهم الناس باعتبارهم معلمى أبنائهم ويعتبرون واسطة بينهم وبين الله سواء في الحصول على حاجاتهم أو في درء المصائب وصرفها عنهم».[339]

(335) راجع ص 205 من هذه المجلة.

(336) راجع ص 201 من هذه المجلة.

(337) كلمة مالم عند الهوسا معناها معلم وهي تحريف للكلمة العربية كما لا يكاد يخفى، وكلمة ألفا عند يوربا معناها معلم وهي ترخيم للكلمة العربية «**الفاهم**» وقد اجتمع التحريف والترخيم في قول توماس أرنولد «الألوفا» كجمع لكلمة ألفا كما يأتى.

(338) السركى كما تقدم هو لقب السلطان عند الهوسا أما الأوبا فهو نظيره عند يوربا.

(339) الدعوة إلى الاسلام — لتوماس أرنولد — ص 392.

ومثل هذه الوضعية تؤدي بطبيعة الحال إلى تزايد عدد الراغبين في الدراسة وعدد الأسر التي ترسل أبناءها إلى المدارس إن لم يكن للاسلام ذاته فلنيل الجاه وغيره من امتيازات القادر على القراءة في وسط حشد من الأميين، ولكن النتيجة في النهاية واحدة: يتخرج هؤلاء الأبناء مسلمين ورعين متشبثين بالمذهب المالكي ليساهموا فيما بعد على نشره. والسبب في هذه النتيجة «أن المعلم كان يعمل على أساس أن مهمته الرئيسية ليست أن يعلم هؤلاء القراءة والكتابة فحسب بل أن يجعل منهم مسلمين صالحين».[340] ثم ان معظم المعلمين في نيجيريا كانوا ينتمون إلى الطرق الصوفية التي كان يعتمد نظامها «على أن يكون الواحد منهم قدوة لغيره كما كان يعتمد على مبلغ تأثير المعلم منهم في تلاميذه».[341] فيكون تقدير المعلم عندهم تبعا لمدى نجاحه في جعل هؤلاء التلاميذ مسلمين أتقياء متشبثين بالأخلاق الفاضلة فإذا كان المعلم البسيط كاتب التعاويذ قد يلجأ إلى ما يشبه الحيلة لاكثار عدد المتحولين إلى الاسلام «مثال ذلك أنه حينما تطلب منه هذه التعاويذ النساء العواقر الاتي فقدن أولادهن أطفالا يفرض عليهن شرط لنجاح هذه التعاويذ أن ينشأن أطفال المستقبل على الاسلام»[342] فلا يتصور أن يخفق المعلم الحقيقي المقتدر أمام أطفال يقضون معه سنين عديدة من أعمارهم في وقت يتوقف تقديره عند الناس على مدى نجاحه في أداء هذه المهمة وفي وقت يعتبر نفسه مسؤولا عنهم إلى درجة أنه «إذا تغيب أحدهم لمرض قام بزيارته في بيته وإذا احتاج إلى العلاج تولى ذلك بنفسه عند الاقتضاء»[343].

---

(340) جريدة نيجيريا للاسلام، المجلد 2 العدد 1 يونيو 1971-1972 ص 41 (بالأجنبية).

(341) الدعوة إلى الاسلام — لتوماس أرنولد — ص 366.

(342) نفس المصدر ص 392.

(343) جريدة نيجريا المذكورة أعلاه ص 41 (باللغة الأجنبية والترجمة لصاحب البحث).

ملاحظة : نلاحظ أن كثيرا من المعلمين والدعاة في نيجيريا اليوم لم يعودوا يعيرون أي اهتمام لذلك المنهج الفذ الذي كان ينهجه أسلافهم في القديم من الاهتمام بتلاميذهم في داخل المؤسسات التعليمية وفي خارجها معا رغم علمهم بالنتائج الهامة التي كان يحققها ذلك المنهج العظيم. بل نرى معظم المعلمين اليوم يتحرجون حتى من مجرد الالتقاء بتلاميذهم خارج قاعات الدراسة أو يجدون غضاضة في أنفسهم عند اتصالهم بهؤلاء التلاميذ وينسون أن سيد المرسلين ﷺ كان يقضي وقته مع بلال وعمار وأمثالهما ولا يجد غضاضة في ذلك. وبهذا التطور المنحرف — أو ضعف الايمان على الأصح — تركوا للمبشرين ذلك الأسلوب الرائع الذي ابتكره أسلافهم فتراهم يكتفون بالقاء المحاضرات أو الخطب الرنانة ويحسبون أنهم يقومون بواجبهم خير قيام. وفرق كبير بين من يبذر الحب في الأرض ثم يتركه فريسة للعوامل الجوية تفعل ما تشاء وبين من يبذر البذر ويتعهدها بالحرث والسقاية وتوفير مقومات الحياة لها فلا يتركه إلا بعد أن يشتد عوده ويقوى فرسه.

بجميع هذه الألوان من الأنشطة يتضاعف عدد المسلمين الذين لايعرفون إلا المذهب المالكي أي مذهب هؤلاء المعلمين. وبتضاعف عدد التلاميذ والطلبة تظهر الحاجة إلى التخصص فيتوجه فئة من المبرزين إلى المراكز الاسلامية كجامعة سنكرى في تمبكتو أشهر جامعة اسلامية في غرب أفريقيا في ذلك الوقت قبل أن تتحول إلى كانو وكاشنة كما تقدم[344] ولم يزل أمرهم يستفحل حتى وجد منهم يتوجه إلى مدينة فاس[345] مركز تخصص أساتذة تمبكتو نفسها وعاصمة الفقه المالكي التي «انتهى عدد مساجدها في أيام المنصور وولده الناصر إلى سبعمائة واثنين وثمانين مسجدا»[346] إلى جانب العديد من المكتبات العامة الزاخرة[347] فكان لايطمع في التوجه إليها إلا كبار الأساتذة كمثل ما تقدم عن الأستاذ الذي أحضره منسى موسى من الحجاز ليتولى التدريس في جامعة سنكرى فوجد الأستاذ بالجامعة اعلاما أكثر دراية بالعلم منه فاضطر للرحيل إلى فاس للتعمق في مادته قبل أن يستطيع العودة إلى تمبكتو للتدريس بها[348] فكان توجه هؤلاء النيجيريين إلى فاس دليلا قاطعا على رسوخ قدمهم في الدراسات الاسلامية منذ ذلك العهد. بل وجد منهم من توجه إلى القيروان والأزهر الشريف[349] ثم رجعوا إلى بلادهم يتفجرون علما ويلتهبون اخلاصا، ليتولوا في هذه البلاد التدريس والامامة والقضاء ويرسخوا فقه عالم المدينة في أذهان اخوانهم.

ولم يزل التعليم يزدهر بشتى الطرق ويتضاعف أهله، ولم يزل المعلمون الكبار والصغار يستغلون كل فرصة ممكنة لتحويل الناس إلى الاسلام ولترسيخ أصول وقواعد المذهب المالكي في هذه البلاد، ولم تزل جامعة القرويين وغيرها تغذي أبناء هذه البلاد بالفقه المالكي حتى تبحر كثير من النيجيريين في هذا المذهب فوجد من بينهم عدد لا يستهان به ممن بلغوا رتبة الاجتهاد كالشيخ عثمان بن فودى. فحمل هؤلاء لواء المذهب المالكي بأيديهم بعد أن كان في أيدي غير

(344) راجع ص 213 من هذه المجلة.

(345) راجع جريدة نيجيريا للاسلام المجلد 2 العدد 1 يوليو 1971-1972 ص 40.

(346) القرطاس — لابن أبي زرع — ص 47.

(347) حضارة العرب — للدكتور غستاف لوبوتن — ص 258.

(348) راجع ص 195 من هذه المجلة.

(349) جريدة نيجيريا للاسلام المذكور أعلاه ص 40.

النيجيريين وكافحوا من أجل نشره بين إخوانهم حتى وصل العلم المالكي إلى سائر أنحاء نيجيريا.

وهكذا يتبين لنا أن للعلم والمعلمين دورا بالغ ا لأهمية في نشر المذهب المالكي في نيجيريا كما يتبين لنا أن فتح المدارس كان خطوة جبارة في سبيل نشر المذهب. ويظهر أن المبشرين والمستعمرين الذي يركزون على التعليم في محاربة الاسلام في نيجيريا اليوم انما يحاولون تقليد ذلك العمل الجليل الذي ابتكره التجار المغاربة في نيجيريا في القديم، إذ كثيرا ما يقتبسون منا الأفكار ونأتي بعد ذلك لنتعجب من **ذكائهم الفائق** ناسين أو متناسين عن مبتكر الفكرة وما أكثر ما يصفق الجمهور لممثل مسرحي بارع دون السؤال عن مؤلفه !

المبحث التاسع

دور الدعـاة

يقول الشيخ على محفوظ: «من أمعن النظر علم أن الدعوة إلى الله حياة الأديان وأنه ما قام دين من الأديان ولا انتشر مذهب من المذاهب ولا ثبت مبدأ من المبادىء إلا بالدعوة وما تداعت أركان ملة بعد قيامها ولا درست رسوم طريقة بعد ارتفاع أعلامها ولا تلاشت نزعة من النزعات بعد أحكامها إلا بترك الدعوة. فالدعوة حياة كل أمر عام تدعى إليه الأمم والشعوب سواء أكان ذلك الأمر حقا أم باطلا. ولقد علمنا التاريخ أنه ماقام أحد يدعو إلى شيء إلا وجد له أنصارا وأتباعا. وها نحن أولاء نرى المذاهب الباطلة تنمو بالدعوة والمذاهب الحقة بإهمال الدعوة تتضاءل، ولو كان الحق يقوم بنفسه وينتشر بذاته لأنه الحق لما فرضت علينا الدعوة إليه».[350] ويقول الشيخ آدم: «ومما يعرف به قدر أهمية الدعاية أنه إذا كان في دنيانا اليوم تاجران أحدهما يبيع البضاعات النفسية القيمة ولكنه يهمل شأن الدعاية ويكتفي بمعرفة أصحابه، وثانيهما يبيع الأشياء الخسيسة ولكن شمر عن ساعد الدعاية للقريب والبعيد ويعرض سلعته على من يحبها ومن لايحبها، فإن البسطاء — وهم الأكثرون — يقبلون على صاحب الدعاية ويصدقونه ويعرضون عن من لادعاية له ويقولون: لو كان صادقا لما سكت عن الدعاية»[351].

وعندما تكاثر عدد العلماء والفقهاء حسبما تقدم عند الحديث عن دور المعلمين في نشر المذهب، ازداد عدد من يدرك الحقيقة التي تضمنها كلام الشيخ

---

(350) هدية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة للشيخ على محفوظ ص 14 (ط. دار الكتاب ط 5).

(351) تاريخ الدعوة إلى الله الشيخ آدم ص 244 (ط. وهبة بالقاهرة ط 2 سنة 1399 هـ).

محفوظ والشيخ آدم السابقين. وكيف لايدركون هذه الحقيقة وقد ذكرنا أن منهم من تربى في القرويين والقيروان والأزهر على أيدي جهابذة الفكر الاسلامي؟ وهؤلاء الذين أدركوا هذه الحقيقة هم الذين قرروا فيما بعد أن لايكتفوا بكون الاسلام خير الأديان فيتركوه ينتشر بنفسه، بل رأوا أن لابد من النهوض بالدعوة فألزموا أنفسهم لذلك أن يولوها جميع جهدهم وتفكيرهم ويكرسوا لها حياتهم اقتداء بأستاذهم عبد الله بن ياسين. وهكذا تكوّن من بين النيجيريين من يمكن أن نسميهم بالدعاة المحترفين تمييزا لهم عن التجار والمعلمين وغيرهم الذين وأن لعبوا دورا عظيما في الدعوة الاسلامية إلا أنهم لم يتفرغوا لها. فقام هؤلاء الدعاة المحترفون يكافحون الوثنية ويدخلون الوثنيين إلى الاسلام. ولما كانوا مالكيين بطبيعة الحال فقد كان كل انتصار يحققونه على الوثنيين هو انتشار للمذهب المالكي وازدياد في عدد من لايرضى بغير امام دار الهجرة اماما.

وكان مما ساعد هؤلاء الدعاة في مهمتهم أنهم إلى جانب ادراكهم أهمية الدعوة وضرورة التفرغ لها، أدركوا كذلك أن لاجدوى من عمل لايكون صاحبه على بصيرة تامة من أمره، فرأوا ضرورة التعمق في دراسة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم معلم الدعوة والقرآن الذي يمشى على الرجلين، ليستضيئوا بها ويدركوا على هديها حقيقة الحكمة التي أمر الله بها الداعية في قوله: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾.[352] فقلبوا صفحات السيرة فرأوا أنه صلى الله عليه وسلم صبور يقابل الاساءة بالحسنة كما في مثل حديث زيد بن سعنة اليهودي الذي جاء يتقاضى النبي صلى الله عليه وسلم قبل حلول أجل الدين ولم يكتف بذلك بل جذب ثوب النبي صلى الله عليه وسلم عن منكبه وأخذ بمجاميع ثيابه وأغلظ له القول فانتهره سيدنا عمر رضي الله عنه وشدد له في القول والنبي صلى الله عليه وسلم يبتسم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج ياعمر، تأمرني بحسن القضاء وتأمره بحسن التقاضي ثم قال لقد بقى من أجله ثلاث. وأمر عمر أن يقضيه ماله ويزيده عشرين صاعا لما روعه، فكان هذا الخلق الفريد من نوعه سبب اسلام ذلك اليهودي الذي ما فعل بالنبي صلى الله وسلم إلا اختبارا له.[353]

---

(352) سورة النحل آية 125.

(353) للحديث شواهد في صحيح البخاري ــ ج 3 ص 116 (ط. مصورة عن الطبعة الأميرية سنة 1314 هـ . صحيح مسلم ــ القسم 1 ج 2 ص 48 (ط. الحلبى بمصر سنة 1377 هـ).

ففي هؤلاء الدعاة من هذا أن الصبر وحسن الخلق من الحكمة التي أمر الله بها الداعية والتي يمكن أن ينزع الله بها جاهلية العقيدة عن قلب من يشاء من عباده ثم قلبوا الصفحات من جديد فرأوا حديث أحمد عن الغلام الشاب الذي جاء يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في الزنا فصاح الناس به ولكن النبي صلى الله عليه وسلم قرب الشاب إليه حتى أجلسه بين يديه فقال: أتحبه لأمك؟ ... أتحبه لأختك؟ ... أتحبه ... والشاب لايزيد على قوله: لا والله جعلني الله فداءك، ولم ينته هذا الحوار الرائع حتى كان الزنا أبغض شيء إلى نفس هذا الشاب[354]. ففهم هؤلاء الدعاة أن الزجر النفسي أيضا من الحكمة التي يمكن أن ينزع الله بها جاهلية الأخلاق عمن يشاء.

ثم تتبعوا بعد ذلك سيرة أئمتهم: مالك وسحنون وابن ياسين والمغيلي وغيرهم ممن سبق أن تحدثنا عنهم، فأدركوا أن الحكمة لاحصر لها وأن على الداعية تخير المدخل الأكثر مناسبة إلى نفوس من يوجه إليهم الدعوة حسب ذكائهم وعقولهم وأمزجتهم وظروفهم وغير ذلك. وأدركوا إلى جانب كل ذلك أن الداعية ما لم يكن مع مقالة فعاله لم يصح أن ينتسب إلى هؤلاء الأئمة الأطهار وإنما ينتسب حينئذ إلى جنس أشرطة مسجلة تدور بعض الوقت ليستمع الناس إليها وهي تهرف بما لاتعرف ثم تودع أماكنها لتدار مرة أخرى إذا احتيج إليها، وأن «الدعاة الذين يحيون على هذا النحو المتناقض هم آفة الايمان وسقام الحياة وهم الثقل الذي يهوى بالمثل العليا ويمرغها في الأوحال».[355] لذلك اتخذ هؤلاء الدعاة القدوة الحسنة طريق النجاح في أداء مهمتهم. وكان كل ذلك مضافة إلى انتمائهم إلى الطرق الصوفية كما سنرى، مما منحهم القدرة على التأثير القوى على هؤلاء الوثنيين فهدى الله بهم عددا عظيما من الوثنيين فانتشر المذهب المالكي بإسلامهم انتشارا واسعا.

ولقد كنا ذكرنا أن الداعي المحترف يكون موضع الريبة من الأهالي مما يعرقل مهمته[356] غير أن الداعي هنا مبرأ من ذلك العيب أيضا بسبب أن

(354) راجع مسند الامام أحمد ــ ج 257/5 (ط. الميمنية بمصر سنة 1313 هـ).

(355) مع الله: دراسات في الدعوة والدعاة ــ لمحمد الغزالي ص 193 (ط. حسان بالقاهرة ط 4) وراجع كذلك: هداية المرشدين للشيخ على محفوظ ص 90، تاريخ الدعوة للشيخ آدم ص 255.

(356) راجع ص 169 ــ 170 من هذه المجلة.

التاجر والمعلم وغيرهم كانوا قد سبقوه ومهدوا له الطريق. يقول توماس أرنولد: «وما دام التاجر قد مهد له الطريق من قبل فلا يرتاب فيه الأهالي».[357] ومما ساعدهم كذلك أن فكرة وجود الله لم تكن مجهولة عند الوثنيين الأفارقة، بل أكثر من ذلك أن الاعتقاد بوجود خالق الأكوان كان اعتقادا راسخا عندهم وأن اعتقدوا إلى جانب ذلك بوجود آلهة أدنى منه درجة فكان من السهل على هؤلاء الدعاة أن يحولوهم الى عقيدة التوحيد الاسلامية كما أوضحنا فيما سبق[358].

ومن جملة ما يسر تقبل الوثنيين النيجيريين للاسلام ما ذكره الشهيد أحمد بللو فيما كتبه قبيل استشهاده. يقول: «أعتقد أن ثمة قيما ذاتية في أسلوب الحياة الاسلامية يعتبرها الوثنيون ــ وذلك في أغلب الظن ــ أسمى وأجدر بالقبول من غيرها كالنصرانية مثلا. هذه القيم هي انعدام التمييز العنصري والطبقي وكرم المسلم الذي تضرب به الأمثال لكل من هو في حاجة إلى عون ... وخصائله في الصحبة والرعاية والاحترام، واخلاصه الذي يؤدى به فرائض دينه. وأخيرا وليس آخرا فشل الأشياء المادية في التأثير على حكم المسلم الصادق وأعماله ... ان الوثنى ينتقل في لحظة اهتدائه إلى الاسلام إلى أحضان الجماعة الاسلامية عضوا كامل العضوية والحقوق. وليس ثم حاجز من أي نوع يمنعه من أن يرتقي ــ بحق ــ سلم مجتمعه الجديد».[359] وبسبب تعدد هذه العوامل المساعدة كان دور الدعاة في نشر الاسلام والمذهب المالكي دورا عظيما.

وقد شد عضد هؤلاء الدعاة النيجيريين في جميع أعمالهم اخوانهم الدعاة العرب والمهاجرون الذين قصدوا البلاد خصيصا لهذا العمل الشريف والذين سبق أن ذكرنا أن زمام المبادرة في كل شيء كان في أيديهم إلى أن تمكن النيجيريون من استلامها منهم. ومع ذلك ظل التعاون بين الجميع وثيقا اذ الهدف واحد: وهو نشر الاسلام والمذهب المالكي، فكل مقدام في الميدان محبوب ومشكور من قبل الجميع. وكان مما يسر مهمة الداعي العربي على وجه التخصيص أنه كان دائما يكون على ثقة تامة من نفسه لسمو حضارته وعقله. يقول توماس

---

(357) الدعوة إلى الاسلام ــ لتوماس أرنولد ص 393.

(358) راجع ص 168 ــ 169 من هذه المجلة.

(359) مأساتنا في أفريقيا ــ لعماد الدين خليل ــ ص 163 (ط. مؤسسة الرسالة بيروت ط 1).

أرنولد: «يكون الداعية بين القبائل الزنجية غير المتحضرة على ثقة دائما من الاستجابة السريعة»[360] وبهذه الثقة لم يكن الدعاة العرب يقتصرون في دعوتهم على عامة الناس بل كانوا يوجهونها كذلك إلى السلاطين والأمراء وما تقدم عن الحافظ جلال الدين السيوطي والامام المغيلي يعتبر من أقرب وأروع الأمثلة على ذلك.[361] ولكن مع ثقتهم هذه كانوا يراعون مقتضيات الحكمة التي أوضحنا مدلولها قريبا، ولذلك كانوا إذا توجهوا إلى السلاطين بدعوتهم يبينون لهم «أنه من العار عليهم أن يكونوا رؤساء يعيشون من غير أن تكون لهم أية شريعة من الشرائع الالهية وأن يفعلوا مثل ما فعلت الجماعات المنحطة التي عاشت من غير أن تكون لها شريعة على الاطلاق».[362]

فهنا نرى صورة أخرى من صور الحكمة في الدعوة التي تحدثنا عنها والمتمثلة في ضرورة اختيار الأسلوب الذي ينفعل به المدعو حسب عقليته وظروفه ومنصفه وغير ذلك. فالمدعو هنا سلطان مما يأبى علي الداعية أن يقول له انه من الجماعات المنحطة التي تعيش بدون شريعة الهية فلجأ إلى هذا الاسلوب العاطفي مما لابد وأن يؤدي لا إلى اسلام السلطان فحسب بل إلى أن يصبح من المسلمين المتحمسين على نشر الدعوة ليبرهن على أن الداعية كان على الصواب حين لم يعتبره هو وجماعته من الجماعات المنحطة وان كانوا في واقع أمرهم من هؤلاء الجماعات المنحطة. ولا يبعد أن يكون مثل هذا الأسلوب هو الذي أدى إلى أن سلطان كانو لم يكتف باعتناق الاسلام يوم اعتنقه على أيدي الدعاة الماليين، حتى أصدر أمرا إلى جميع رعاياه بإقامة الصلاة كما بينا فيما سبق[363]. وهذا بخلاف مالو واجهه الداعية بقوله انه من الجماعات المنحطة التي تعيش بلا شريعة، فلربما كانت النتيجة التنكيل بالداعية نفسه. ولايدرك هذه الحقيقة إلا من تعرض بنفسه لمثل هذا الموقف.

---

(360) الدعوة إلى الاسلام — لتوماس أرنولد — ص 393.

(361) راجع ص 234 — 235 و 240 - 141 من هذه المجلة.

(362) الدعوة إلى الاسلام لأرنولد ص 368.

(363) راجع ص 201 من هذه المجلة.

وهكذا كان للدعاة العرب دور عظيم بتوجيههم دعوتهم إلى السلاطين وبتأثيرهم في إخوانهم الدعاة النيجيريين تأثيرا أدى إلى الرفع من كفاءتهم في ميدان الدعوة حتى أمكنهم أن يقوموا بدورهم في هذا المجال خير قيام فانتشر بهم الاسلام والمذهب المالكي انتشارا واسعا. ومن الجدير بالذكر هنا أن الداعي العربي لم يكن يرتفع عن اخوانه السودانيين ولا يعتبر نفسه أحسن منهم في شيء إلا بالتقوى وكان يطبق على نفسه تطبيقا عمليا كل ما كان يدعو الناس إليه وقد يصاهر الأهالي لتأكيد هذه المساواة التي كان يتصرف بمقتضاها في كل شيء كما تقدم مثلا عن تزاوج الفلاني والهوسا في نيجيريا إلى أن انتهى أمرهم إلى الاندماج التام[364] وكما تقدم أيضا عن المجتهد المالكي الكبير الامام محمد بن عبد الكريم المغيلي من أنه تزوج في نيجيريا وخلف فيها أولادا وأن أحفادهم باقون في شمال نيجيريا إلى اليوم.[365] فكل ذلك وأمثاله كان مما لابد أن يكون له أبلغ الأثر في نجاح الدعاة العرب في مهمتهم. وقد نضيف إلى كل ذلك ما ذكره توماس أرنولد في قوله: «ولا شك أن نجاح الاسلام قد تقدم في أفريقيا الزنجية تقدما جوهريا بسبب عدم كل احساس باحتقار الأسود وفي الحق يظهر أن الاسلام لم يعامل الأسود قط على أنه من طبقة منحطة كما كانت الحال لسوء الحظ في كثير من الأحيان في العالم المسيحي».[366] وإن كان الظاهر أن السودانيين عموما والنيجيريين خصوصا لم يكونوا يقدرون هذه المزية في العرب حق قدرها حتى ظهر الافرنج في الميدان واتخذوا من الأهالي سلعة تجارية ومن اللون أساسا بنوا عليه فلسفة وجودهم[367] فتحول السواد إلى عنوان اللعنة الالهية بعد أن كان آية من آيات القدرة الالهية، حتى أعلن فيلسوفهم الكبير سنتسكيو على رؤوس الأشهاد: «ان لنا حقا مكتسبا في اتخاذ الزنوج عبيدا ... فما هذه الشعوب إلا عناصر سوداء البشرة من قمة الرأس إلى أخمص القدم ولا يمكن أن تتصور أن الله جلت قدرته هو ذو الحكمة السابغة قد يضع روحا طيبة في مثل هذا الجسم

---

(364) راجع ص 228 ـــ 229 من هذه المجلة.

(365) راجع ص 240 من هذه المجلة.

(366) الدعوة إلى الاسلام ـــ لتوماس أرنولد ـــ ص 394.

(367) راجع التمييز العنصري في أفريقيا ـــ لمحمد عبد الرحيم عنبر ص 34 (ط. دار القومية 1966).

الحالك السواد».[368] فكان كل ذلك مما جعل النيجيريين يدركون من مزايا الاسلام بعض ما قد لا يتفطن لها غيرهم فزادهم ذلك تشبثا به وافتخارا حتى أعلن كبار علمائهم أمثال الشيخ آدم: أنه «لو جاز لكل انسان أن يختاره اليوم زنوج أمريكا الذين لايزالون يقاسمون أشد أنواع الاضطهاد من أجل لونهم في القرن العشرين، وفي أرقى شعوب العالم الأبيض في أمريكا».[369] وقد أدى كل ذلك بطبيعة الحال إلى تضاعف عدد المسلمين.

(368) صور أفريقية ــ للدكتور محمد محمود الصياد ص 11 (ط. دار المعارف بمصر 1957).

(369) الاسلام في نيجيريا ــ للشيخ آدم عبد الله الألورى ــ ص 145 (ط. دار العربية 1391 هـ).

المبحث العاشر

دور الوعاظ

بتضاعف عدد المسلمين بسرعة بسبب هذه المجهودات المكثفة من قبل المعلمين والدعاة وغيرهم، مضافة إلى ما يزخر الاسلام به من المزايا الظاهرة والخفية، يظهر جليا أن بعض هؤلاء الذين أسلموا لايبالون كثيرا بتطبيق تعاليم الاسلام ومقتضيات المذهب المالكي الذي يدينون به، إما للجهل بهذه المقتضيات أو لمحض عدم المبالاة. وهنا يأتي دور الوعاظ.

وأقصد بالوعاظ هنا طائفة من الدعاة يوجهون مجهودهم الدعائي إلى المسلمين أكثر مما يوجهونه إلى الكافرين[370] فينصحونهم بتطبيق الاسلام ومقتضيات مذهبهم المالكي كما ينبغي، ويزجرونهم عن ارتكاب المعاصي، ويعلمونهم كل ما هم في الحاجة إليه لتحقيق هذا الهدف. فالوعظ درجة بعد قبول أصل الدعوة كما يتبادر من مثل قوله تعالى : ﴿ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر﴾[371] وقوله ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين﴾[372] وكما ورد في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه: «وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون ...»[373] وغير ذلك. وذكر الوعاظ هنا في عداد من ساهموا في نشر المذهب المالكي في نيجيريا لايرجع إلى أن هناك مذهبا كان ينافس المذهب المالكي في هذه الديار فعمل هؤلاء الوعاظ على تحويل الناس عنه وادخالهم إلى المذهب

(370) أصل معنى الوعظ: زجر مقترن بتخويف كما ذكر الراغب في المفردات ص 564 (ط. التقدم العربي 1392).

(371) سورة البقرة آية 232.

(372) سورة النور آية 17.

(373) رواه الامام أحمد في مسنده — ج 4 ص 126 (ط الميمنية بمصر سنة 1313 هـ).

المالكي وإنما سبب ذكرهم هنا أنهم بتقويتهم الجبهة الداخلية للمسلمين المالكيين يتضاعف عدد الدعاة الذين يكرسون مجهودهم لنشر الدعوة بين الوثنيين فيتضاعف بالتالي عدد المسلمين المتشبثين بالمذهب المالكي. هذا بالاضافة إلى أن هؤلاء الوعاظ كثيرا ما يقومون بأنشطة تؤدى إلى اسلام الوثنيين بصورة مباشرة وذلك لعظم نشاطهم في نيجيريا.

ولقد اعتقد هؤلاء الوعاظ ــ وكل عالم في نيجيريا واعظ ــ أن الوعظ واجب اسلامي فكانوا حريصين على القيام به. فمنهم من يعقد مجالس وعظه في المسجد في أيام وأوقات معينة، ومنهم من يخصص لوعظه «يوما أو ليلة معينة في الساحات العامة يحضرها الرجال والنساء ويقضون فيها الساعات»(374) ومنهم من ينتقل من مكان إلى آخر يذكر ا لمؤمنين وينصح المقصرين ويجاهد المنافقين بلسانه حتى يتوب على يديه خلق كثير ويهدي الله به آخرين.

وهؤلاء الوعاظ في نيجيريا لايتركون فرصة سانحة دون أن يغتنموها. ففي اعتناق الاسلام يجتمع العلماء والأئمة في بيت المسلم الجديد وحوله أهله وذووه ليعلن اسلامه بينهم وبعد أن يقوم الامام الواعظ بتلقينه كلمة الشهادة وغير ذلك من مراسيم اعتناق الاسلام، يذكر الحاضرين بمزايا الاسلام بما يرغب الكافرين فيه ويوطد العوام على اسلامهم ويرسخ أصول وقواعد المذهب المالكي في العلماء، كما يقوم بتوزيع الهدايا والصدقات مما لابد وأن يؤثر في الوثنيين فيؤدي إلى أن يعلن الآخرون منهم عن رغبتهم في اعتناق الاسلام لتتكرر نفس العملية. وهكذا يتضاعف عدد المسلمين المتعلقين بأهداب عالم المدينة رضي الله عنه والعودة من الحج تقترن عند النيجيريين باحتفال عظيم. إنهم لاينسون أبدا ذلك الاستقبال الرائع الذي خصصته قبائل كدالة ولمتونة للأمير يحيى بن ابراهيم حين عاد من الحج ومعه امامهم عبد الله بن ياسين(375) الذي حمل إليهم مذهبهم المالكي كما أوضحنا فيما سبق.(376) ولذلك يخصصون لكل عائد من الحج استقبالا مماثلا، فيخرج الأقارب والأصدقاء وجمهور من عامة المسلمين إلى المحطة

---

(374) الاسلام في نيجيريا للشيخ آدم ص 141-142.

(375) راجع ص 176 ــ 177 من هذه المجلة.

(376) راجع ص 177 ــ 184 من هذه المجلة.

ليرافقوا الحاج الجديد من هناك إلى بيته في موكب عظيم كأنه ملك يتوج، وهم يهتفون بالأناشيد المطربة ويستغلون كل ذلك للتأثير على الكافرين فيتضاعف بذلك عدد المتحولين إلى الاسلام. وعندما يصلون إلى بيت الحاج يقوم الواعظ بدوره المعهود. ففي ذلك الحشد من المسقتبلين — وفيهم عدد من الكافرين الذين لايدفعهم إلى الاشتراك في ذلك إلا حب الاستطلاع — يقوم الواعظ خطيبا فيعدد فضائل من حج البيت وزار النبي ﷺ وغير ذلك، ترغيبا لغيره من المسلمين أن يقوموا بأداء هذ الفريضة المقدسة. ولا يتفرقون من ذلك الحشد البهيج إلا وقد أثر الواعظ في الجميع تأثيرا عميقا بما يوطد أركان المذهب المالكي في المسلمين ويحث الكافرين على اعتناق الاسلام ويكثر من عدد المسلمين الذين يعجلون بأداء هذه الفريضة المقدسة.

وفي حفلة النكاح يقوم الواعظ بتذكير الزوجين بواجباتهما وحقوقهما على وجه يستفيد منه الحاضرون جميعا. وفي حفلة التسمية يوم سابع المولود يذكر الحاضرين بحقوق الولد على الوالدين في الحضانة والتربية الاسلامية الصحيحة وما إلى ذلك. وفي الجنازة بعد دفن الميت يقوم الواعظ بتذكير الناس بما حل بواحد منهم وبحثهم على قصر الأمل واغتنام الحياة بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل الموت، والصحة قبل المرض والغنى قبل الفقر وغير ذلك ويؤكد لهم ألا عمل أعظم أجرا من الجهاد في سبيل نشر الاسلام.

وهكذا نرى أن الواعظ لايترك أية فرصة تمر بدون أن يغتنمها لترسيخ فقه الامام مالك في قلوب المواطن النيجيري. ولذلك فإن دور الوعاظ في نشر المذهب المالكي في نيجيريا لايقل شأنا عن أدوار الذين تحدثنا عنهم إلى الآن. وقد اخترع هؤلاء الوعاظ في نيجيريا أسلوب الوعظ يمكنهم من التأثير القوي في الجميع والايغال بأفكارهم إلى عقول العامة والخاصة معا. يقول الشيخ آدم: «وقد اخترع الوعاظ أسلوب الوعظ بالأشعار الأعجمية في نغمات يتذوقها أبناء البلاد ويتأثرون بها ولا ينسونها أبدا ويسمونها واكا في لغتى هوسا وبوربا فقد اعتادها بعضهم حتى صارت له ملكة يقتدر بها على تفسير كل آية من القرآن».[377] وبهذه الألوان المختلفة من النشاط ساهم الوعاظ مساهمة جليلة في توطيد أركان المذهب المالكي في نيجيريا كما ساهموا بطريقة غير مباشرة في تكثير عدد المتشبثين بهذا المذهب.

(377) الاسلام في نيجيريا — للشيخ آدم — ص 142.

المبحث الحادي عشر

دور التصوف والطرق الصوفية

هناك طائفة جمعوا بين التعليم والدعوة والوعظ والرياضة النفسية، فكان لهم أعمق الأثر في نشر الاسلام في نيجيريا وبالتالي في نشر المذهب المالكي فيها. وهؤلاء هم طائفة المتصوفة.

وقضية التصوف في الاسلام هي من كبريات القضايا التي أقضت مضاجع المفكرين وزلزلت أقلام الكاتبين وبلبلت أفكار القارئين منذ زمن قديم إلى اليوم حتى اكتظت المكتبات الاسلامية بالمجلدات المتناقضة بين أنصاره وخصومه. ولا أعتزم الخوض في ذلك هنا ولا القيام بالفصل بين الفريقين وإنما الذي يهمني في هذا الباب أن أذكر أن هؤلاء الصوفيين كان لهم دور عظيم للغاية في القضاء على الوثنية في نيجيريا وبالتالي في نشر المذهب المالكي في هذه البلاد وكان السبب في ذلك ما يتمتع به هؤلاء من التأثير القوى على كل من حولهم. ويرجع هذا التأثير القوى إلى مزايا امتاز بها المتصوفة. ذلك أن التصوف في جوهره عبارة عن تصفية القلب وتطهيره من رجاساته واخلاص العبودية لله والتحرر من عبودية الجسد ونبذ الدنيا وهجر لذائذها الفانية والخشوع والصمت والتأمل وما إلى ذلك.

يقول أحمد زروق: «قد حد التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين ترجع كلها إلى صدق التوجه إلى الله تعالى وإنما هي وجوه فيه»[378]. وقريب من ذلك جواب أبي العباس لمن سأله عن حقيقة التصوف فقال: «اعلم

(378) كاشف الالباس عن فيضة الختم أبي العباس ــ لابراهيم بن عبد الله ص 25 (ط. الحلبي 1952).

أن التصوف هو امتثال الأمر واجتناب النهي في الظاهر والباطن من حيث يرضى لامن حيث ترضى».[379] ومن ذلك أيضا قول ابن محمد الجريري أن التصوف عبارة عن «الدخول في كل خلق سنى والخروج عن كل خلق دنيء»[380] وقول غيره أنه «تصفية القلب عن موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية واخماد الصفات البشرية ومجانبة الدواعي النفسانية ومنازلة الصفات الروحانية والتعلق بعلوم الحقيقة واتباع الرسول في الشريعة».[381] ولا يبعد كل ذلك عن قول العلامة ابن خلدون أن التصوف في أصله «العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والأعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف فلما فشا الاقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة»[382] ولذلك يقول عبد الوهاب الشعراني: «إن حقيقة الصوفي هو عالم عمل بعلمه أي على وجه الاخلاص لاغير، فليس علم التصوف إلا معرفة طريق الوصول إلى العمل للاخلاص لاغير فلو عمل العالم بعلمه على وجه الاخلاص كان هو الصوفي حقا».[383]

ومحاولة المسلم أن يعمل بكل ما يعلم تنتهي به الى الاجتهاد في العبادة بطبيعة الحال لكثرة الأوامر التي يعلمها من الكتاب والسنة، ومن ثم نجد الصوفي كثير العبادة شديد الحرص حتى على النوافل. وقد أوضح الشيخ عبد القادر الجيلاني السر الكامن وراء هذا الحرص على النوافل فضلا عن الفرائض فقال: «مثل الايمان كبلدة لها خمسة من الحصون: الأول من ذهب والثاني من فضة والثالث من حديد والرابع من آجر والخامس من لبن، فما دام أهل الحصن متعاهدين الذي هو من لبن فلا يطمع العدو في الحصن الثاني فإذا أهملوا ذلك

---

(379) كاشف الالباس ــ لابراهيم بن عبد الله ــ ص 29.

(380) احياء علوم الدين والكتب الملحقة به ج 5 ص 62 (ط. دار المعرفة ــ بيروت).

(381) نفس المصدر ج 5 ص 64.

(382) تاريخ ابن خلدون ج 1 ص 863 (ط. دار الكتاب اللبناني ط 3 سنة 1967 م).

(383) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية لعبد الوهاب الشعراني ص 195 (ط. نصر بالقاهرة).

طمع العدو في الحصن الثاني ثم الثالث حتى تخرب الحصون كلها. فكذلك الايمان في خمسة من الحصون: أولها اليقين ثم الاخلاص ثم أداء الفرائض ثم اتمام السنة ثم حفظ الآداب، فما دام العبد يحفظ الآداب ويتعاهدها فالشيطان لايطمع فيه فإذا ترك الآداب طمع الشيطان في السنة ثم الفرائض ثم الاخلاص ثم اليقين فينبغي للانسان أن يحفظ الآداب في جميع أموره من العبادات والمعاملات حتى لايستحوذ عليه الشيطان»[384].

ومن شأن الصوفي إلى جانب هذا الاجتهاد في العبادة والاخلاص فيها والحرص على النوافل خوفا على الفرائض: أن يكون دائم الايثار واحتمال الأذى. يقول عبد الوهاب الشعراني: «ومن شأنه أن يكون دائم الايثار لأصحابه في سائر الشهوات على نفسه وقد أجمع الأشياخ على أن المريد إذا كان شأنه الايثار واحتمال الأذى فلابد من رفعته على جميع أقرانه[385]. ويقول أبو الحسين النورى: «نعت الفقير / أي الصوفي/: السكون عند العدم والبذل والايثار عند الوجود»[386]. ومن شأنه كذلك التسليم وعدم الاعتراض في شيء، يبدأ تدريبه على ذلك مع شيخه حتى ينتهى إلى الاستسلام المطلق لارادة الله وهو الهدف من التدريب الذي يتدربه مع شيخه. يقول عبد الوهاب الشعراني: «ومن شأنه أن لايقول لشيخه قط: لم؟ فقد أجمع الأشياخ على أن كل مريد قال لشيخه لم لايفلح في الطريق ... فإن الطريق كلها أدب وتأدب فمن تأدب مع حضرة شيخه تأدب مع حضرة الله تعالى»[387].

وهذا الايثار على النفس واحتمال الأذى والتسليم المطلق وغير ذلك، يتطلب صبرا عظيما وإرادة قوية ولذلك يهتم كبار علمائهم ببيان فضيلة الصبر والأمور التي يستعان بها عليه[388] كما يهتمون ببيان الوسائل المختلفة لتربيـة الارادة وتقويتها[389]. وهذه الأمور إلى جانب ما ذكر تتطلب كذلك التغلب على

(384) مدارج الحقيقة في الرابطة عند أهل الحقيقة لابراهيم حلمى ص 11 (ط. الاسكندرية 1381 هـ).

(385) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية ص 96.

(386) احياء علوم الدين ج 5 ص 62.

(387) الأنوار القدسية ص 204.

(388) راجع احياء علوم الدين للغزالي ج 4 ص 61, 75.

(389) راجع الأخلاق عند الغزالي ــ للدكتور زكي مبارك ــ ص 117 (ط. دار الكتاب 1968 م).

الكبر والفخر وما إلى ذلك من أمراض القلوب التي تقف عقبة دون الوصول إلى هذه المعاني السامية والأخلاق العالية. ولذلك تخصص هؤلاء المتصوفة في معالجة هذه الأمراض لتطهير النفوس من رجسها. فلاخراج الكبر من النفوس مثلا وادخال التواضع فيها يذكرون مريديهم مثلا ببعض المواقف الرائعة التي وقفها بعض الأئمة رغم رفعة منزلتهم من مثل ما ورد في الرسالة القشيرية في معرض الحث على التواضع: «قال عروة بن الزبير: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعلى عاتقه قربة ماء فقلت يا أمير المؤمنين لاينبغي لك هذا فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين دخلت في نفسي نخوة فأحببت أن أكسرها، ومضى بالقربة إلى حجرة امرأة من الأنصار فأفرغها في إنائها»[390] ولا حصر لمثل هذا عند هؤلاء المتصوفة.

والمهم الآن أنه بسبب هذا الاجتهاد في العبادة والاعتناء بالمندوبات حرصا على الواجبات مع الاخلاص في ذلك، والايثار واحتمال الأذى ومجاهدة النفس وتطهيرها من أمراضها والتواضع وغير ذلك، يحصل للصوفى صفاء ونقاء ونور يمكنه من التأثير فيمن حوله تأثيرا قويا جدا وعميقا سواء في تعليمه أو في دعوته أو في وعظه وقد ندرك هذه الحقيقة من جواب صوفي قيل له: «مالك كلما تكلمت بكى كل من يسمعك ولا يبكى من كلام واعظ المدينة أحد؟ فقال: ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة»[391] وهكذا كان المتصوفة بسبب اخلاصهم وتعدد صفاتهم النورانية من أبرز من حملوا الناس على حسن تطبيق أصول وقواعد المذهب المالكي في نيجيريا والحرص على آدابه في المنشط والمكره حتى صار كثير من عوام المسلمين في نيجيريا إلى اليوم لايفرقون بين المندوب والواجب بل يرون جميع فروع هذا المذهب من الواجبات، هذا بالاضافة إلى الدور البطولي الذي قام به هؤلاء المتصوفة في القضاء على الوثنية في هذه البلاد.

ولقد كنا أشرنا إلى الخصومة الواقعة في قضية التصوف في الاسلام، وما أظن مسلما يخاصم في شيء من هذه المعاني السامية التي ذكرناها للتصوف والمتصوفة من الاخلاص في العبادة والاجتهاد فيها والايثار وتطهير النفس من

---

(390) الرسالة القشيرية في علم التصوف ص 90 (ط. العامرة العثمانية بمصر سنة 1304 هـ).

(391) التصوف الاسلامي في الأدب والأخلاق للدكتور زكي مبارك ج 1 ص 95 (ط. دار الجيل 1937 م).

أمراضها وغير ذلك، اللهم إلا أن يخاصم في تسمية كل ذلك بالتصوف، ولا مشاحة في الأسامى فالعبرة بالمعاني قبل المباني. وقد كان إمامنا مالك مجتهدا في العبادة وقد عقد القاضي عياض اليحصبى لذلك في مداركه بابا خاصا[392] وكان الامام يوصى بذلك فيقول: «اجتهد أن لاتأتي عليك ساعة من ليل أو نهار إلا ولسانك رطب من ذكر الله».[393] بل اعتبر ذلك مقياس عقل المرء فقال: «لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله فبقدر ما يعقل يعبد ربه»[394]. وكما حث الصوفية على مجانبة أهل السوء والغفلة وجعلوا ذلك من قواعدهم[395] فكذلك حث إمامنا مالك عليه فقال: «عليك بمجالسة من يزيد في علمك قوله ويدعوك إلى الآخرة فعله وإياك ومجالسة من يعللك قوله ويعيبك دينه ويدعوك إلى الدنيا فعله».[396] وكما حث الصوفية على التواضع على ما مر بَنا قريبا فكذلك حث الامام مالك عليه فقال: «ينبغي للرجل إذا خول علما وصار رأسا يشار إليه بالأصابع أن يضع التراب على رأسه ويمقت نفسه إذا خلابها ولا يفرح بالرياسة».[397] ولم يكن ذلك مجرد حث لغيره بل كان أول من يتبادر إلى القيام بما يوصى غيره به حتى صار قدوة الأنام في التواضع وإمامهم فيه كما كان في غيره. فقد كان الناس مثلا يرونه إمام العلماء ومن شدة تواضعه وهضمه لنفسه يستغرب من ذلك مثلا: سئل الامام عن قوله لا أدري مع أنه إمام العلماء بلا منازع فقيل له: «إذا قلت أنت يا أبا عبد الله: لا أدري فمن يدري؟ قال ويحك أما عرفتني ومن أنا؟ وأي شيء منزلتي حتى أدري ما لاأدري؟ ... هذا ابن عمر يقول: لا أدري فمن أنا؟ وإنما أهلك الناس العجب وطلب الرياسة»[398] وغير ذلك ممن سبق أن تحدثنا عنه ومما لاأثر فيه للتصنع وإنما هو تواضع نابع من الأعماق والاخلاص وتقوى الله تعالى.

---

(392) راجع المدارك للقاضي عياض ج 2 ص 50-57 (ط. وزارة الأوقاف ـــ الرباط).

(393) نفس المصدر ج 2 ص 65.

(394) نفس المصدر ج 2 ص 67.

(395) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية ـــ لعبد الوهاب الشعراني ص 84.

(396) المدارك ج 2 ص 64.

(397) المدارك ج 2 ص 61.

(398) نفس المصدر ج 1 ص 184.

وزبدة الكلام أن هذه المعاني السامية التي يدعو إليها المتصوفة من الاجتهاد في عبادة الله والاخلاص في ذلك والتواضع مع الخلق وما إلى ذلك، هي من صميم الاسلام ولسيت مما ينازع فيها مسلم. اذن فالذين نازعوا في التصوف لابد أن يكونوا قد نازعوا في غير هذه المعاني: كأن ينازعوا في المبالغة في ذلك الاجتهاد في العبادة إلى حد اختراع عبادات جديدة[399] وجعل الواجب والمندوب بمنزلة واحدة[400] والرياضة النفسية إلى حد ربط بعضهم نفسه بالحديد أو كي جسمه بالنار[401] والتغالي في تعظيم الشيخ[402] والتعصب له في الحق والباطل[403] والاستغاثة به في الملمات[404] واعتباره مساويا لامام المرسلين ﷺ.[405]أو يكون هؤلاء الخصوم إنما أنكروا على الصوفية بعض عاداتهم المرذولة كالتواجد عند السماع[406] والرقصات إلى حد تمزيق الثياب[407] واقحامهم الخرافات المسيحية في الدين الاسلامي الطاهر باسم التصوف[408] واتباعهم الكفار في بعض نظرياتهم المنحرفة[409] ودعاويهم العريضة كالدعوى أن الصوفى يتصرف في الوجود[410] وأنه يقول لشيء كن فيكون[411] وأنه يبلغ مقاما تسقط عنه عنده التكاليف الشرعية الظاهرة[412] وغير ذلك من الدعاوى التي لايشهد لها منقول ولا معقول.

---

(399) راجع الاعتصام للشاطبي 19/2.

(400) راجع الموافقات ج 3 ص 153.

(401) راجع احياء السنة لابن فودي ص 231.

(402) راجع الاعتصام ج 1 ص 258.

(403) راجع العقيدة الصحيحة لجومى ص 49.

(404) راجع الاستقصا للناصري ج 1 ص 142.

(405) راجع الدعوة إلى الله الدكتور الهلالي ص 21.

(406) راجع الاعتصام ج 1 ص 266.

(407) راجع ابن الفارض ــ ليوحنا قمير ص 21.

(408) راجع آثار الفلسفة والتصوف للشيخ آدم ص 47.

(409) راجع الدين المقارن لمحمود المنوفى ص 221.

(410) راجع هذه هي الصوفية لعبد الرحمان الوكيل ص 133,107 (ط. دار الكتب العلمية ط 3).

(411) هذه هي الصوفية ــ لعبد الرحمان الوكيل ص 117.

(412) راجع إحياء السنة واخماد البدعة لابن فودى ص 235، مجموع فتاوى ابن تيمية ج 11.

إلا أن بعض ما ينكر على القوم قد يكون مرجعه في الواقع إلى بعض مصطلحاتهم الخاصة. وفي ذلك يقول بعض المتصوفة: «من لم يفقه أحوالنا لم يفقه أقوالنا».[413] ويقول الشيخ أحمد زروق: «معظم نظر القوم ما يجمع قلوبهم على مولاهم فمن ثم قالوا بأشياء في باب الأدب أنكرها من لم يعرف قصدهم وأخذها بغير حق من لم يبلغ حالهم فضل بها وزل».[414] وقد قامت لجنة من الصوفيين النيجيريين برفع هذه الشبهات وإزالة الألباس التي قد تشتبه على الناس.[415] فلم يبق مما ينكر عليهم إلا ما هو ناتج عن جهلتهم وأدعيائهم وهم في ذلك مثل جهلة غيرهم وأدعيائهم. يقول شيخ الاسلام الامام ابن تيمية: «قد انتسب اليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم»[416] ويقول ابراهيم حلمى القادري: «قد يشاهد على بعض المنتسبين إليها من الجهلة المتصوفة ما يجب تقويمه ... كما يشاهد على بعض المنتسبين إلى مجرد الشريعة ما يندى منه جبين الانسانية ... فلا هذا ولا ذاك بقادح في الطائفتين ... والصوفية سادات أمة وطريقهم هو الموصل إلى الله تعالى لأنه علم مصحوب بالعمل وكون بعض الطرقية من المشعوذين ينتسب إليهم زورا أو كون بعض المتعالمين بالمارقين يصورهم للرأي العام بصورة مخالفة لما جاء به الدين لايكون بحال مدعاة إلى إنكار الطريقة وأصولها وتعاليمها التي هي من لب الكتاب وخالص السنة»[417]

والتصوف الحق الخالي من الانحرافات والجهالات التي أشرنا إليها، والمقتصر على الاجتهاد في عبادة الله والإعراض عما سواه وامتثال أوامر الشريعة والاعتناء بالمندوبات حرصا على الفرائض، والبحث عن الطرق الموصلة إلى الاخلاص في الأمور كلها، والايثار واحتمال الأذى والتواضع ومعالجة أمراض القلوب وغير ذلك، لاشك أنه يدخل في صميم الشريعة وهذا النوع من التصوف هو الموافق لأحوال إمامنا مالك كما مر بنا قريبا وهو النوع الذي ارتضاه المغرب

(413) كاشف الالباس لابراهيم بن عبد الله ص 95. ص 539,409.

(414) نفس المصدر ص 45.

(415) اسم الكتاب: رفع الشبهات عما في القادرية والتجانية من الشطحات من منشورات النجاري بلاغوس.

(416) مجموع فتاوى ابن تيمية ج 11 ص 18، وراجع كذلك إحياء علوم الدين ج 5 ص 71.

(417) مدارج الحقيقة في الرابطة عند أهل الحقيقة لابراهيم حلمى ص 13.

لنفسه وجمع بينه وبين مذهبه المالكي وحارب ما عداه واعتبره انحرافا عن مقصد التصوف[418] وهو النوع الذي نقله إلى السودان الغربي تماما كما نقل الاسلام السنى الطاهر وأم المذاهب الفقهية إلى هذه الأقطار[419]. وهو النوع الذي كان له أكبر الأثر في نشر الاسلام والمذهب المالكي في نيجيريا لما قدمنا من قوة تأثير صاحبه على كل من حوله.[420] لقد كان ذلك التأثير القوى مما مكن هؤلاء المتصوفة من جهة أخرى من أن ينظموا الجماهير المسلمة في أربطة قوية وطاقة نفسية صلبة تحت قيادة مسموعة ومتبوعة حتى صار هؤلاء قوة مهابة جاهدت الوثنيين ونشروا فيهم الاسلام والمذهب المالكي. وكذلك أنشأوا الزوايا يتمركز فيها أصحابهم ويبذلون قصارى جهودهم في تفقيه الناس في الفقه المالكي حتى تحولت هذه الزوايا إلى معاهد تخرج فطاحل العلماء وحفاظ المذهب المالكي. وبالاضافة إلى كل ذلك فإن معظم من سبق أن تحدثنا عن أدوارهم في نشر المذهب المالكي. وبالاضافة إلى كل ذلك فإن معظم من سبق أن تحدثنا عن أدوارهم في نشر المذهب المالكي من المعلمين والدعاة والوعاظ كانوا ينتمون إلى الطرق الصوفية وكانوا متخرجين على أيدي المتصوفة وكان ذلك من أهم عوامل نجاحهم في مهامهم ذلك النجاح الباهر الذي رأيناه فيما سبق بحيث يمكن أن ينسب إلى التصوف والنزعة الصوفية معظم ما أنجزه المسلمون في غرب أفريقيا عموما وفي نيجيريا على وجه التخصيص.

يقول الشيخ آدم: «الطريقة الصوفية في غرب أفريقيا رابطة روحية قوية وطاقة نفسية صلبة تنظم أفرادا من الأتباع في سلك واحد وتحت قيادة مسموعة ومتبوعة وكانت الطريقة تعمل عمل الجمعيات الخيرية الحديثة في السلم وتعمل عمل الجيش الاسلامي في الحرب. وكانت الزوايا التي يتمركز فيها أصحاب الطرق تقوم مقام الملاجىء للفقراء والمساكين وتقوم مقام المعاهد والمدارس لطلبة الثقافة من القرآن والحديث والفقه والأخلاق وتقوم مقام المساجد يذكر فيها الله كثيرا حتى أنجبت الثقافات والحضارات والدول والحكومات التي يذكرها التاريخ

(418) راجع النبوغ المغربي ج 1 ص 79.

(419) راجع العلم السياسي، السنة الأولى العدد الثاني، غشت 1982 ص 3.

(420) راجع ص 262 — 263 من هذه المجلة.

ويفتخر بها المسلمون اليوم في غرب أفريقيا وفي العالم وكل ما يذكر من آثار العلم والأدب والثقافة في ذلك البلاد إنما هي غرس من غراس رجال الطرق الصوفية».[421]

وجاء في مجلة الوعي الاسلامي ما نصه: «ولا تنسى الجهود الصادقة التي قامت بها الصوفية في نشر الاسلام هناك دعوة وجهادا وتربية وتعليما مثل القادرية والتجانية وهما الزعامة الدينية الآن في غرب أفريقيا عامة وفي نيجيريا خاصة. ولا ينكر الدور الذي تسهم به هذه الطرق في ابقاء مشعل الاسلام مضيئا والعمل بأسلوبهم الخاص والمنظم للاحتفاظ بالاسلام والدعوة لنشر طريقته في الحياة»[422]. ويقول جماعة من الصوفيين النيجريين في معرض دفاعهم عن المتصوفة في وجه بعض الدعاة الجدد الذين يذهبون اليوم إلى تكفير هؤلاء المتصوفة بسبب شطحاتهم التي كنا أشرنا إلى شيء منها قبل قليل: «ان هؤلاء الذين كفرتهم اليوم هم الذين حملوا إليك الاسلام والايمان والاحسان والقرآن ثم انهم كانوا أعلم منك وأتقى منك ... وهم الذين أثبتوا الاسلام في هذه البلاد ونصرهم الله على الكفار والمشركين وأكرمهم بكرامات كانت سببا في ثبوت الاسلام إلى اليوم».[423]

الواقع أنه «لايسع أحدا منصفا أن ينكر فضل الصوفية الأبرار في نشر الاسلام في مختلف الأقطار كما لاينكر أحد فضلهم في اصلاح الأخلاق واثراء **الفكر الاسلامي** بالحكمة والمعرفة ومجاهدة النفس والهوى والشيطان»،[424] «وإذا **كانت الصوفية** قد خرجت اليوم عن مقصدها الأول وتسربت إليها البدع **والأفكار** الأجنبية فلقد أدت خدمتها الجليلة للدعوة الاسلامية خصوصا في غرب أفريقيا حتى لم يبق مجال لنكران فضلها في نشر الاسلام»[425].

---

(421) آثار الفلسفة والتصوف والعلم للشيخ آدم ص 61-62 (ط. مطبعة المدني بالقاهرة 1982 م).

(422) مجلة الوعي الاسلامي، السنة 5 العدد 59 ذي القعدة 1369 م ص 63.

(423) رفع الشبهات عما في القادرية والتجانية من الشطحات ــ للجنة ايلورن ــ ص 18.

(424) تاريخ الدعوة إلى الله ــ للشيخ آدم ــ ص 194.

(425) الاسلام في نيجيريا ــ للشيخ آدم ــ ص 42.

وأهم الطرق الصوفية التي قامت بأعظم الأدوار في القضاء على الوثنية وبالتالي في تضخيم عدد المتشبثين بأهذاب عالم المدينة هي: الطريقة القادرية والطريقة التيجانية والطريقة السنوسية. وهناك طرق صوفية أخرى نمسك عن ذكرها هنا لضآلة أثرها في نيجيريا.

1. الطريقة القادرية

الطريقة القادرية هي رابطة روحية تنتسب إلى مؤسسها وشيخها عبد القادر الجيلاني البغدادي المتوفى سنة 1166 م. وهي طريقة «تدعو إلى التقوى وتنتشر في شمال وغرب أفريقيا».[426] وكان مولد مؤسس الطريقة الشيخ عبد القادر سنة 471 هـ «في جيلان وراء طبرستان وانتقل إلى بغداد شابا سنة 488»[427] وكان ممن جمع بين الرسوخ في العلم والمبالغة في تقوى الله مع التواضع الشديد مع الفقراء والضعفاء والصغار فكان في وعظه وارشاده قوى الأثر في «احياء موات النفوس والقلوب وزرع الايمان وخشية الله وحبه فيها واشعال مجامير القلوب التي انطفأت من جديد. فقد أعاد الله به إلى قلوب لايحصيها إلا الله حياة وإيمانا وهبت بمواعظه وتربيته رياح من الايمان عاشت بها قلوب ميتة ونشطت بها نفوس خامدة».[428] وكان في جميع أموره متمسكا «بالسنة مبالغا في الرد على من خالفها».[429] وهكذا أسس الطريقة القادرية. ولم يمنعه اشتغاله بالوعظ والارشاد وتربية النفوس من الاشتغال بالتدريس ونشر العلم فقد «تصدر للتدريس والافتاء في بغداد سنة 528 هـ»[430] و«كان قوى الاشتغال بالتدريس عالما متفننا قالوا كان يتكلم في ثلاثة عشر علما ... وكان يفتى على مذهب الامام الشافعي والامام أحمد بن حنبل رضي الله عنهما»[431] وكانت وفاته 561 هـ.[432]

(426) الموسوعة العربية الميسرة ص 1359 (صورة طبق الأصل عن طبعة 1965 م).
(427) الأعلام للزركلي ج 4 ص 171 (ط. 2).
(428) رجال الفكر والدعوة في الاسلام — لأبي الحسن على الحسنى الندوى ص 256 (ط. دار القلم).
(429) نفس المصدر ص 258 (ط. دار القلم بالكويت ط 5 سنة 1977 م).
(430) الأعلام للزركلي ج 4 ص 171.
(431) رجال الفكر والدعوة في الاسلام للندوى ص 258.
(432) الأعلام للزركلي ج 4 ص 171.

وقد أخذ المغرب هذه الطريقة من شيخها نفسه وأخضعها للمذهب المالكي ثم قام بنشرها في السودان الغربي حتى ترسخت في نيجيريا تماما مثل ما فعل مع المذهب المالكي الذي أخذه عن الامام مالك نفسه ثم طوره وبعد ذلك قام بنشره في السودان الغربي حتى ترسخ في نيجيريا. يقول الأستاذ ابراهيم حركات: «وللقادرية وجود راسخ بالمغرب الذي استقبلها من المشرق حيث ظهرت بالعراق على يد الشيخ عبد القادر الجيلاني بالعراق في القرن 5 هـ / 11 م والقادرية تتفق مع المذهب المالكي الذي تعتنقه ومن ثم فقد تقبلها الشمال الأفريقي وبخاصة المغرب الذي نقلها إلى أفريقيا الغربية».[433] ويقول الشيخ آدم: «أول من نشرها بالمغرب العربي هو الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسن الأندلسي الذي اجتمع بالشيخ عبد القادر الجيلاني على جبل عرفة عام حجه وخلع عليه الخلعة الصوفية. ولما رجع إلى المغرب نشر بها العلم والطريقة إلى أن توفى سنة 594 هـ وأول من نشرها في بلاد السودان محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني ثم سيدي أحمد البكاء الكنتى بالقرن الخامس عشر الميلادي ثم الشيخ محمد فاضل بن مامين وابنه ماء العينين والشيخ سعد أبيه. ثم انتشرت القادرية على يد الشيخ المختار الكنتى (1780-1799) ثم الشيخ عثمان بن فودى الفلانى وله في الطريقة القادرية أشعار ومؤلفات».[434].

ولقد اهتم جماعة القادرية بالدعوة الاسلامية وبالوعظ والارشاد ونشر العلم اهتماما بالغا شأنهم في ذلك شأن شيخهم ولذلك كان أثرهم في نشر الاسلام عظيما. يقول لوثروب ستودارد: «وبالاجمال فالطريقة القادرية هم أحمس مبشرى الدين الاسلامي في غرب أفريقيا من السنغال إلى بنين التي بقرب منصب النيجر وهم ينشرون الاسلام بطريقة سلمية أي بالاستعمار والتجارة والتعليم ... ومن مريديهم من يخدمون في مهنة الكتابة والتعليم ويفتحون كتاتيب ليس في زوايا الطريقة فقط بل في كل القرى فيلقنون صغار الزنج الدين الاسلامي أثناء التعليم ويرسلون النجباء من تلاميذهم على نفقة الزوايا إلى مدارس طرابلس والقيروان وجامع القرويين بفاس والجامع الأزهر بمصر فيخرجون من هناك طلبة مجازين

(433) العلم السياسي، السنة الأولى العدد الثاني غشت 1982 م ص 3.

(434) الاسلام في نيجيريا للشيخ آدم ص 43.

أي أساتذة ويعودون إلى تلك البلاد لأجل مقاومة التبشير المسحي في السودان».[435] ويقول توماس أرنولد: «وكان نشاط هذه الجماعة في الدعوة ذا طابع سلمى للغاية يعتمد كل الاعتماد على الارشاد وعلى أن يكون الواحد منهم قدوة لغيره كما كان يعتمد على مبلغ تأثير المعلم منهم في تلاميذه كما يعتمد على انتشار التعليم. وبهذه الخطة برهن دعاة القادرية في السودان على أنهم أوفياء لمبادىء مؤسس الجماعة ولتقاليدها العامة».[436]

ولكن مع اعتماد القادرية على طرق سلمية في نشر الدعوة فإنها لاتتردد في اللجوء إلى الجهاد المسلح إذا دعت الضرورة إلى ذلك. فما قامت الدولة الاسلامية الكبرى في نيجيريا إلا على أيدي علماء قادريين برعوا في الفقه المالكي بفضل اهتمام القادرية بالتعليم اهتماما بالغا، ومع ذلك لم يمنعهم هذا من أن يحملوا السلاح ويحاربوا الطغاة. يقول الشيخ آدم: وبفضل التصوف والطريقة القادرية استطاع الشيخ عثمان بن فودى من قبل أن يكون الجيش الاسلامي ليحارب بهم الطغاة الجبابرة من ملوك السودان حتى أسس أكبر دولة اسلامية اكتسحت جميع ما يعرف اليوم بشمال نيجيريا ويبلغ عدد سكانها نحو خمسين مليونا ونصفا».[437]

2. الطريقة التجانية

الطريقة التجانية هي رابطة روحية تنتسب إلى مؤسسها وشيخها أحمد ابن محمد المختار التجاني الذي اتخذ مدينة فاس مقرا له إلى أن توفى سنة 1815 م[438] وللطريقة التجانية الصولة والجولة في غرب أفريقيا[439] وأعظم من نشرها فيه هو الحاج عمر الفوتى. يقول الشيخ آدم: «وأعظم من نشر هذه الطريقة في غرب أفريقيا هو الحاج عمر الفوتى الذي ولد سنة 1798 م وأخذ

(435) حاضر العالم الاسلامي ــ اللوثوب المجلد 1 القسم 2 ص 396 (ط. دار الفكر ط 3 عام 1971).
(436) الدعوة إلى الاسلام لأرنولد ص 366.
(437) آثار الفلسفة والتصوف للشيخ آدم ص 62.
(438) راجع الدولة الاسلامية : تاريخها وحضارتها ــ لعبد الحميد العبادي وزملاؤه ص 164.
(439) الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية ــ للدكتور محمد تقى الدين الهلالي ص 139.

الطريقة من الشيخ على حرازم صاحب جواهر المعاني والتلميذ الأكبر للشيخ أحمد التجاني»[440] وكان الحاج عمر هذا «ابنا لأحد المرابطين وتثقف ثقافة دينية متينة واشتهر بعلمه وورعه حين خرج إلى الحج سنة 1827 ولم يعد من الحج إلى وطنه إلا سنة 1833»[441] سبق أن ذكرنا عند الحديث عن دور الهجرة في نشر المذهب المالكي في نيجيريا أن حجاج غرب أفريقيا كانوا يمرون بشمال نيجيريا في طريقهم إلى مكة. لقد كان الحاج عمر المذكور من أبرز هؤلاء فلقد مر بسوكوتو عند عودته من حجه المذكور واتصل بالسلطان محمد بللو الذي ساعده على نشر الطريقة التجانية في نيجيريا حتى تأخر في نيجيريا وكان من أهم نتائج ذلك أنه لم يغادر نيجيريا حين غادرها الا وقد تأثر تأثرا بالغا بالجهاد الاسلامي الكبير الذي قام في نيجيريا فرجع إلى بلاده ليقوم بجهاد مماثل. يقول الشيخ آدم انه «لما اتصل بالسلطان محمد بللو بن عثمان في سكوتو ساعده على نشر هذه الطريقة حتى أشيعت الأنباء بانتساب محمد بللو إلى التجانية ثم عاد عمر الفوتى إلى بلاده وقد تأثر بأعمال السلطان بللو وأبيه عثمان بن فودى فقام هو في بلاد فوتا بالجهاد المماثل وقاوم فرنسا مقاومة شديدة»[442] وظل على ذلك إلى أن توفى فخلفه أتباع مخلصون عملوا على مواصلة جهاده[443].

ومن مشايخ التجانيين الذين ساعدوا على نشر هذه الطريقة في غرب أفريقيا عموما وفي نيجيريا على وجه التخصيص: الشيخ أحمد سكيرج صاحب كشف الحجاب عمن تلقى مع التجاني في الأصحاب والشيخ ابراهيم بن عبيد الله أنياس الذي يزوره كثير من النيجيريين ويستقدمونه إلى بلادهم في مختلف المناسبات. ولم يزل أمر هذه الطريقة يشتد حتى صار لها نفوذ في نيجيريا يقارب نفوذ القادرية. ومن أكبر مشايخهم في نيجيريا: «الشيخ أحمد التجاني بن عثمان البربري في مدينة كانو والشيخ أبو بكر عتيق والشيخ مالم ثاني كافنغا»[444].

---

(440) الاسلام في نيجيريا ــ للشيخ آدم ص 44.
(441) الدعوة إلى الاسلام ــ لتوماس أرنولد ص 367.
(442) الاسلام في نيجيريا ــ للشيخ آدم ص 44.
(443) راجع حاضر العالم الاسلامي ــ للوثروب ــ المجلد الأول القسم الثاني ص 397-398.
(444) الاسلام في نيجيريا للشيخ آدم ص 45.

ولقد لعبت الطائفة التجانية في نشر الاسلام والمذهب المالكي في غرب أفريقيا دورا هاما وذلك باهتمامها ببناء المدارس ونشر العلم وكذلك بما كانت تذهب إليه من ضرورة الجهاد. يقول توماس أرنولد: «أما التيجانية ... فقد سارت منذ قامت في السودان حول منتصف القرن التاسع عشر على نفس أساليب القادرية في الدعوة وساعد تعدد مدارسهم في الغالب على نشر العقيدة ولكن التجانية التي كانت تختلف عن القادرية لم تتورع على اللجوء إلى السيف يستعينون به على خطتهم في تحويل الناس إلى الاسلام».[445] وقريب من ذلك ما ورد في كتاب الدولة الاسلامية في قوله: «ورسم الحاج عمر رئيس التجانية في السودان الغربي الخطوط الرئيسية لأتباعه فعمل أولا على تعليمهم بعض فنون الحرب وأمدهم بالأسلحة ثم بدأ سنة 1833 م سلسلة من الحملات لنشر الاسلام بين القبائل التي ظلت على الوثنية حول النيجر الأعلى والسنغال».[446].

ولكن يلاحظ توماس أرنولد على الحركات الحربية التي قام بها التجانيون في غرب أفريقيا ملاحظة تنطبق على واقع أمرهم في نيجيريا وذلك في قوله: «أما الأهمية الحقيقية لهذه الحركات في تاريخ الدعوة الاسلامية في غربي أفريقية فهي ما أثاره هؤلاء من حماسة دينية تجلت في نشاط الدعوة الواسع النطاق بين الشعوب الوثنية ذلك النشاط الذي كان ذا طابع سلمي خالص».[447] فإن أهمية دورهم في نشر الاسلام والمذهب المالكي في نيجيريا لاتكمن في الجهاد المسلح لأن القادريين سبقوهم إلى ذلك إنما تكمن في حماستهم المنقطعة النظير في الدعوة إلى الاسلام إلى جانب اهتمامهم البالغ ببناء المدارس ونشر العلم. وبفضلهم يتقدم الاسلام بخطى ثابتة حتى في الاقليم الشرقي من دولة نيجيريا. فلقد قمت بجولة استطلاعية شملت معظم مدن وقرى ذلك الاقليم وذلك قصد الوقوف على حالة المسلمين في ذلك الاقليم الصليبي من دولة نيجيريا قبل تحرير فصول هذا البحث، فأدهشني ما شاهدت من تيارات مبعوثيهم المنطلقة من غرب نيجيريا لنشر الاسلام في ذلك الاقليم. وهذا العمل لايمكن أن نبالغ في تقدير

(445) الدعوة إلى الاسلام لتوماس أرنولد ص 367.

(446) الدولة الاسلامية: تاريخها وحضارتها لعبد الحميد العبادي وزملاؤه ص 164.

(447) الدعوة إلى الاسلام لتوماس أرنولد ص 370.

أهميته في ميدان توطيد أركان المذهب المالكي في نيجيريا لا بالنظر لما ينطوي عليه من كسب أتباع جدد لهذا المذهب فحسب ولكن بالنظر كذلك إلى أن الاقليم الشرقي من دولة نيجيريا ظل إلى وقت قريب جدا معقل المبشرين ومنطلق مكرهم وسمومهم إلى سائر الأجزاء المسلمة من دولة نيجيريا فأي عمل من شأنه أن يخفف من حدة ذلك هو بلا ريب انتصار عظيم للمذهب المالكي في نيجيريا فإذا أضفنا هذا إلى سائر أنشطة هذه الطائفة في نشر الدعوة أمكننا أن ندرك أن لها دورا مشكورا في توطيد أركان المذهب المالكي في نيجيريا.

3. الطريقة السنوسية

الطريقة السنوسية رابطة روحية تنتسب إلى مؤسسها وشيخها محمد بن علي السنوسي الادريسي المولود في مستغانم بالجزائر سنة 1787 م والمتوفى بجغبوب في الصحراء الليبية سنة 1859 م[448] وكان هدفه من إنشاء هذه الطريقة هو نشر الاسلام واصلاح أحواله. يقول توماس أرنولد: «وفي سنة 1837 أسس سيدي محمد بن علي السنوسي الفقيه الجزائري فرقة دينية لا تهدف إلى اصلاح شأن الاسلام ونشر العقيدة الاسلامية ولم يمت السنوسي سنة 1859 حتى كان قد نجح في تأسيس دولة دينية بقوة عبقريته الصافية دون أن يريق الدماء ... ويلتزم أفراد هذه الجماعة القيام بأوامر القرآن في دقة بما يتفق وأكثر مبادىء التوحيد المطلق تلك المبادىء التي تجعل التعبد لله وحده وتحرم التضرع للأولياء وزيارة قبورهم تحريما تاما وقد أوجبوا على أنفسهم أن يمتنعوا عن شرب القهوة والتدخين وأن يتجنبوا كل اتصال باليهود أو المسيحيين وأن يساهموا بنصيب معين من دخلهم يضاف إلى أموال الجماعة إذا لم يستطيعوا أن يكرسوا أنفسهم لخدمتها كما أوجبوا على أنفسهم أن يقفوا كل نشاطهم على تقدم الاسلام وأن يقاوموا في الوقت نفسه أي لون من ألوان الخضوع للنفوذ الأوربي».[449]

وهذه الأمور التي التزمت بها الطائفة السنوسية ربما هي التي جعلت بعض الناس يعتقدون بأن السنوسي مستقل في رأيه غير متقيد بمذهب، والواقع أنه

---

(448) راجع الموسوعة العربية الميسرة ص 1025.

(449) الدعوة إلى الاسلام لأرنولد ص 371.

مالكي المذهب[450]. فقد كانت دراسته في مدينة فاس[451] عاصمة الفقه المالكي، وإنما التزم أفراد هذه الطائفة بهذه الأمور لما رأوا أنها هي الكفيلة بتحقيق الهدف الذي قاموا من أجله وهو نشر الاسلام واصلاح حاله. وقد اعتمدوا التعليم كخير وسيلة لتحقيق هذا الهدف واعتنوا به اعتناء عظيما إلى درجة أنهم كانوا يشترون الأرقاء لتعليمهم ثم تحريرهم. يقول لوثروب ستودارد: «وطريقة هؤلاء الجماعة في التبشير هي أن يشتروا الأرقاء صغارا من السودان ويربوهم في جنوب وغدامس وغيرهما ثم متى بلغوا أشدهم وأكملوا تحصيل العلم اعتقوهم وسرحوهم إلى أطراف السودان يهدون أبناء جلدتهم الباقية على الفتشية، وهكذا يرحل كل سنة مئات من مبشري السنوسية لبث دعاية الاسلام في جميع أفريقية الداخلية من سواحل الصومال شرقا إلى سواحل السنغامبية غربا»[452].

وكذلك اهتم السنوسيون ببناء الزوايا وتنظيم الدعوة الاسلامية تنظيما محكما. وتقدر عدد زواياهم بين 121 و 453 زاوية[453]. وقد امتدت هذه الزوايا إلى شمال نيجيريا[454]. وكانت الزوايا الفرعية تتلقى الأوامر من الزاوية الرئيسية بجغبوب في ليبيا وكانت دقة التنظيم مما ساعد السنوسيين على النجاح العظيم الذي أحرزوه في تحقيق هدفهم. يقول توماس أرنولد: «وكانت زواياهم الفرعية ... تتلقى من زاويتهم الرئيسية في جغبوب التعليمات والأوامر في كل المسائل المتعلقة بتدبير وتوسيع هذه الدولة الدينية الكبرى التي كانت تضم في نظام رائع آلاف من أشخاص ذوى جنسيات وقوميات متباينة ولو لم يكن الحال على هذا النحو لفرقت بينهم الفوارق الجغرافية الشاسعة والمنافع الدنيوية ولما كان النجاح الذي تحقق على أيدي دعاة هذه الجماعة المتحمسين النشطين عظيما»[455] وكان من نتائج تحمسهم في الدعوة ونشاطهم المنقطع النظير أن

---

(450) راجع حاضر العالم الاسلامي للوثروب ستودارد المجلد 1 القسم 2 ص 398 ــ تعليقا.

(451) راجع الموسوعة العربية الميسرة ص 1025.

(452) حاضر العالم الاسلامي ــ للوثروب ستودارد المجلد 1 ج 2 ص 400.

(453) راجع نفس المصدر المجلد 1 ج 2 ص 398 (التعليق)، الدعوة إلى الاسلام لأرنولد ص 371.

(454) الاسلام في نيجيريا ــ للشيخ آدم ص 45.

(455) الدعوة إلى الاسلام ــ لتوماس أرنولد ص 371.

«أصبحت عدة قبائل أفريقية كانت من قبل وثنية أو مسلمة اسلاما بحتا من أتباع الاسلام المتحمسين منذ أن حل فيهم دعاة السنوسية».[456]

وسبق أن ذكرنا أنهم أوجبوا على أنفسهم أن يقاوموا أي لون من ألوان الخضوع للنفوذ الأوربي ولذلك عندما تدخل الايطاليون في ليبيا «شاركت الطريقة في النضال ضدهم».[457] وضربوا للناس أروع أمثلة في الشجاعة والبطولة. يقول الشيخ الندوى: «لقد قدر الايطاليون أنهم سيفتحون برقة وطرابلس في خمسة عشر يوما ولكن القواد الانجليز الذي مارسوا الحرب في المستعمرات وفي الصحارى عارضوا هذا الرأي. قالوا أنه يدل على عدم تجربتهم في هذا المجال فقد يمكن أن تستغرق هذه الحرب ثلاثة أشهر. فماذا حدث؟ لقد استمر القتال إلى 13 سنة كاملة و لم يستطع الايطاليون في هذه المدة الطويلة أن يخمدوا نار الثورة فيها والفضل في ذلك كله يرجع إلى الفقراء السنوسيين وإمامهم وشيخ طريقتهم سيد أحمد الشريف»[458]

ومع أن قوات البغى والعدوان تمكنت في آخر المطاف من استعمار البلاد وايقاف نشاط السنوسيين في نشر الاسلام فإنه لم يمض إلا فترة قصيرة حتى استرد هؤلاء الأبطال وطنهم واستأنفوا نشاطهم وأقاموا للسنوسية دولة حديثة «على رأسها الملك ادريس الأول الذي نودي به ملكا على ليبيا سنة 1947 وقاد بلاده إلى التحرير التام عام 1951 وأحيى الزوايا السنوسية وجمعها في ادارة خاصة كما طور معهدها حتى صارت جامعة اسلامية على طراز الجامعات الحديثة».[459]

ولما كان السنوسيون قد وقفوا حياتهم على نشر الاسلام فقد استمر الملك ادريس بذلك بأسلوب متطور ملائم للعصر، فبنى في مدينة البيضاء معهدا عظيما خاصا بالطلبة الأجانب اسمه «معهد البعوث الاسلامية» وجعله مفتوحا في وجه كل مسلم يرغب في فهم دينه والتفقه في الفقه المالكي فصار أبناء المسلمين من كافة أرجاء العالم يتقاطرون عليه. لقد التقيت شخصيا في ذلك المعهد العظيم

(456) نفس المصدر ص 371-372.

(457) تاريخ الشعوب الاسلامية ـــ لكارل بروكلمان ج 4 ص 145.

(458) ربانية لارهبانية ـــ لأبي الحسن علي الحسنى الندوى ص 129 (ط. دار لبنان ط 2 عام 1989).

(459) الاسلام في نيجيريا ـــ للشيخ آدم ص 45-46.

بالطلبة الأمريكيين والسويديين والهنود والباكستانيين فضلا عن الطلبة الأفارقة، وكل ذلك على نفقة الدولة السنوسية التي التزمت تحمل جميع مصاريف هؤلاء الطلبة بما في ذلك نفقات سفرهم إلى ليبيا ونفقات عودتهم إلى أوطانهم بعد تخرجهم. وقد استفاد العديد من النيجيريين ـــ ولا زالوا يستفيدون إلى يومنا هذا ـــ من ذلك المعهد العظيم، فكان السنوسيون بذلك ممن ساهموا في توطيد أركان الفقه المالكي في نيجيريا. هذا بالاضافة إلى ماتقدم من امتداد نشاطهم وزواياهم إلى هذه البلاد منذ زمن بعيد. ولكي يمكننا أن نقدر دور السنوسية في نشر الاسلام والمذهب المالكي في نيجيريا حق قدره نذكر هنا أن من بين المستفيدين من ذلك المعهد السنوسي المذكور مسلمون من شرق نيجيريا الذي سبق أن أشرنا إلى الأهمية الخاصة التي يكتسيها امتداد الاسلام إليه.[460] ومن أبرز المكافحين اليوم في سبيل نشر الاسلام والمذهب المالكي في شرق نيجيريا من أبناء ذلك الاقليم الذي تخرجوا في معهد البعوث الاسلامية المذكور: الامام عبد الرشيد أناغا في مدينة أباريا والامام داود نواكوى في مدينة أفيبو، بل إن صاحب هذا البحث سبق هؤلاء في التخرج في ذلك المعهد الاسلامي السنوسي بيد أنه أبى بعد ذلك إلا أن يشد الرحال إلى جامعة القرويين بالمغرب منتهى آمال المتخصصين في الفقه المالكي. فالسنوسيون بامتداد نشاطهم ليشمل ذلك الاقليم من دولة نيجيريا يعتبرون من أعظم من خدموا المذهب المالكي في نيجيريا وعملوا على ترسيخ قواعده فيها. وسنزيد هذا الموضوع توضيحا عند الحديث عن انتشار المذهب المالكي في شرق نيجيريا.

من مجموع حديثنا عن التصوف والطرق الصوفية يتضح لنا أن الصوفيين تركوا أعظم الأثر في ميدان نشر الاسلام والمذهب المالكي في نيجيريا كما يتضح وجه ما سبق أن نقلناه عن الشيخ آدم من قوله: ان جميع المآثر الحميدة التي «يفتخر بها المسلمون اليوم في غرب أفريقيا وفي العالم وكل ما يذكر من آثار لعلم والأدب والثقافة في تلك البلاد إنما هي غرس من غراس رجال الطرق الصوفية».[461]

(460) راجع ص 272 ـــ 273 من هذه المجلة.

(461) راجع ص 266 ـــ 267 من هذه المجلة.